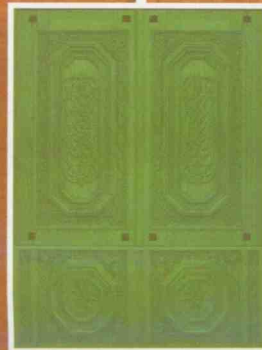


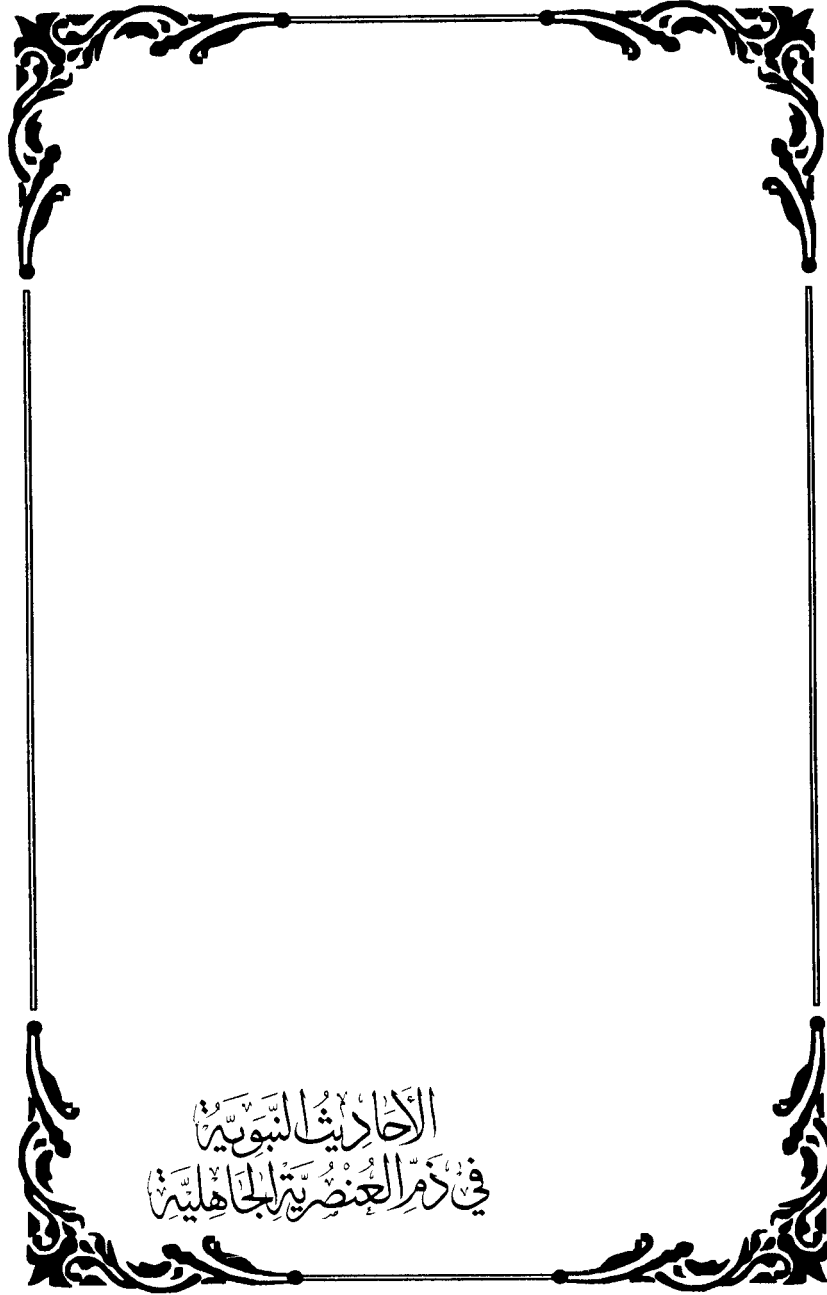
الآخِارُ اثْنَا لِنَبِيِّنَا فِي ذَمِّ الْعَنْصَرِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ

تَأليف
فَضِيلَةَ الشَّيْخِ الدَّكْتُورِ
عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ بَرَجَسٍ الْعَبْدِ الْكَرِيمِ
الْمَعْرُوفِ بِرَبْعَةِ (١٤٢٥ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

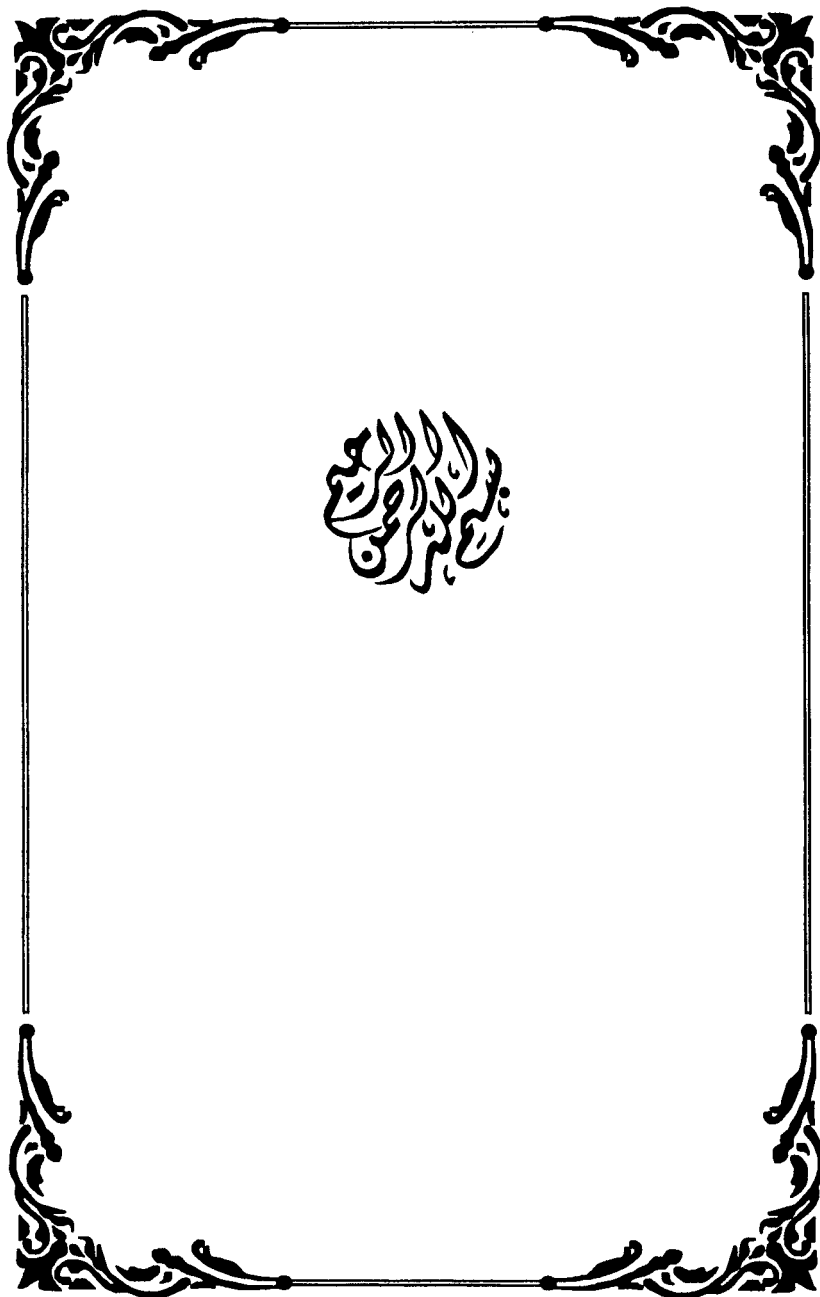
تَشْرِيطُ
صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَالِمِ بِحَقِّهِ السَّالِقِ
صَالِحِ بْنِ فَرْزَانَ الْعَسْكَرِيَّ
نَحْمَدُ اللَّهَ بِمَا وَصَّلَ بِهِ

تَقْدِيمُ
عَبَّاسِ بْنِ أَحْمَدَ التُّرَيْكِيَّ





الْحَادِثَاتُ النَّبَوِيَّةُ
فِي دَمِ الْعَنْصَرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ



الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ فِي ذَمِّ الْعَنْصَرِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ

تَأَلَّفَ
فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الدَّكْتُورِ
عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ بَرَجَسَ الْعَبْدُ الْكَرِيمِ
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ (١٤٢٥ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

تَقَرَّيْظُ
صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَالِمِ بَقِيَّةِ السَّلَفِ
صَالِحِ بْنِ فَوْزَلَانَ الْفَوْزَلَانِ
نَفَعَ اللَّهُ بِهِ وَتَتَعَ بِهِ

تَقْدِيمُ
عَبْدِ الْحَقِّ بْنِ أَحْمَدَ التَّرْكَانِي

طبعة خيرية
بإذنٍ خاصٍّ من ورثة المؤلف رحمه الله
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

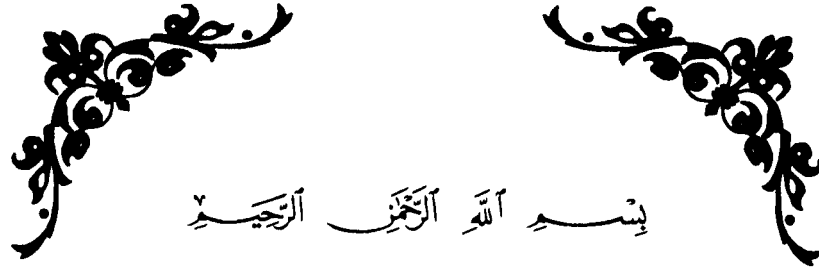
كلمة بين يدي الكتاب:

القومية في ميزان الحق والهدى

كتبها:

عبدالحق بن ملاحق التركماني

عفا الله عنه



الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

لمن نكتب؟

نكتب هذه الكلمات لمن رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً؛ فمن كان هذا صفته نفعتة الذكرى، ورفع العلم، وبصره الحق وهداه، أما من اختار طريق الغي والشقاء؛ فما لنا ولل كلام معه في ما هو من مسمى الإيمان ولوازمه ومقتضياته وثماره، إنما يكون الكلام معه في أصل الإيمان وأساسه، وذلك يختلف في مبادئه ومقاصده عما نحن بصدده، ولكل مقام مقال.

من حقائق الرضى بالله رباً

أما من سعد ووفق إلى الحق والهدى؛ فأول ما يعلمه ويقر به من معاني الرضى بالله رباً: أن الله تعالى هو المتفرد بالخلق، فلا خالق غيره، وكل من سواه فمخلوق له، هم وأفعالهم

وآثارهم، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال جل شأنه: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]؟

ومما يعلمه ويقرُّ به أيضًا: أن الله تعالى متفرّد بالملك، فلا مالك - على وجه الحقيقة - إلا هو، ولا يملك الخلق إلا خالقهم، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَكٌِّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

ومما يعلمه ويقرُّ به أيضًا: أن الله تعالى متفرّد بالتدبير والتصرف في خلقه وملكه، بيده الأمر، وإليه الحكم، لا ربّ سواه، كما قال سبحانه: ﴿إِنِ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُمْ حَبِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاذْنَبْ

يُؤْفِكُونَ ﴿٦٦﴾ [العنكبوت: ٦٦]، وقال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، وقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

ومما يعلمه ويقر به أيضًا: أنَّ الله تعالى متَّصفٌ بصفات الكمال المطلق، فله الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وأنَّ ذلك من ضروريات الرضى به ربًّا، فلولا اتصافه بصفات الكمال المطلق المنزه من كلِّ عيب ونقص؛ لما كان ربًّا ولا خالقًا ولا مالكا ولا مدبرًا، وأنَّ خلقه وملَّكه وحكمه وتصرفه من آثار ربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فكلُّ ما قضى به وقدره، وأنشأه وأبدعه، وسخره ودبره؛ فهو - من حيث هو خلقه وفعله وتدبيره -: حقٌّ مطلق، وعلمٌ مطلق، وعدلٌ مطلق، وحكمةٌ مطلقة، ورحمةٌ مطلقة، وخيرٌ مطلق، ولو كان في شيءٍ من ذلك نقصٌ أو عيبٌ أو شرٌّ بوجهٍ من الوجوه؛ لامتنع أن يُنادى بالأسماء الحسنى، أو أن يوصف بصفات الكمال المطلق، ولما استحقَّ الحمد والتسبيح؛ سبحانه تنزهت صفاته، وتقدَّست أسماؤه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، فهو: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ [الحشر: ٢٤]، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
[البقرة: ١٣٧]، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْحَيُّ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخِصْمُ
فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]؛
فكلُّ ما خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ، وأَمَرَ به في كونه أو شرعه؛ فبمقتضى عِلْمِهِ
وَعَدْلِهِ، وحكمته ورحمته، لا رَبَّ سِوَاهُ، ولا إِلَهَ غَيْرُهُ.

ومِمَّا يَعْلَمُهُ من ضروريَّات الرضى بالله ربًّا، وأَنَّهُ المتفَرِّدُ
بالخلق والملك والتدبير، وأنَّ له الأسماء الحسنَى والصفات
العُلَى: تحقيقُ توحيد الألوهية، وهو إفراد الله تعالى بجميع
العبادات فهو المعبود بحق لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، المستحقُّ وحده لجميع
أنواع العبادة؛ مثل الدعاء والحبِّ والخوف والرجاء والتوكل
والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر وغير ذلك، فلا ندعو إلا الله،
كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
[الأنعام: ٥٦]، ولا نخاف إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ولا نتوكل إلا على الله؛
كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]،
ولا نستعين إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولا نستعيز إلا بالله؛ كما
قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، إلى غير
ذلك من أنواع العبادة وأفرادها. ولا نجاة لأحدٍ من المكلفين إلا
بتحقيق هذا التوحيد: توحيد العبادة ظاهرًا وباطنًا، اعتقادًا وقولًا
وعملًا، فمن أجلها خلق الله الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

لِحَيٍّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتحقيق التوحيد لا يكون إلا بالبراءة من الشرك الذي هو سبب الهلاك الأبدي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]؛ لهذا دعا جميع الرسل إلى أفراد الله تعالى بالعبادة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [التَّحَلُّ: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فكان ذلك أول ما بدؤوا به في دعوة أقوامهم، كما أخبر ربنا سبحانه عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه: ﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥. هود: ٥٠، ٦١، ٨٤]؛ فكان توحيد الله تعالى بالعبادة والإخلاص، والقصد والتوجه؛ هو القضية الأساس والرئيس في مخالفتهم لهم، ويسببه كُذِّبُوا وأُودُوا، وفي كتاب الله تعالى من قصصهم ما فيه عبرة وعظة وتنبيه على منزلة توحيد العبادة وأهميته، لأنه النوع الذي أنكره الكفار قديماً وحديثاً؛ كما قال تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَمَةَ إِلَهًا وَجِدًّا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ﴿٥﴾ [ص: ٥]، وهو من لوازم الإقرار بربوبيته، لهذا قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة: ٢]؛ فوصفه سبحانه بأنه رب العالمين كالتعليل لثبوت الألوهية له، فهو الإله المعبود لأنه رب العالمين، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا كُنْتُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١]؛ فالمتفرّد بالخلق هو المستحقّ للعبادة، لهذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٢٢﴾﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَكُفَيْتُ وَمَنَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا زَيْرٌ وَازِرَةٌ وَذَرَأُ أُخْرَى ثُمَّ إِلَيَّ رَيْكُكُمْ فَيُنْتَفِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾، والآيات في تقرير توحيد الله تعالى بالعبادة كثيرة جدًا، وهو قضية القرآن العظيم الأولى والكبرى والأساس، بل القرآن كله من أوله إلى آخره يدور على هذا التوحيد وتقريره وحقوقه ولوازمه وآثاره وجزائه، ويُبَيِّن ما ينافيه من الشرك ودعاوى أهله وحالهم وجزائهم^(١).

من حقائق الرضى بالإسلام دينًا:

ومن رضى بالإسلام دينًا فإنَّ أول ما يعلمه ويقرُّ به: قول ربِّنا سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، لهذا فهو يعتقّد جازمًا أن لا سعادة في الدين، ولا نجاة في الآخرة إلا بهذا الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأنَّ معناه: الاستسلام التامُّ لله تعالى بالتوحيد والإخلاص،

(١) يُراجع في تفصيل هذا «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله (المقدمة والباب الأخير منه). وفي شرح التوحيد مصنفات كثيرة مشهورة، ولله الحمد والمِنَّة.

والانقياد له بالطاعة؛ بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والبراءة من الشرك وأهله. قال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ومما يعتقده ويقرُّ به: أَنَّ كُلَّ مَا بَيَّنَّه اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا الدِّينِ وَشَرَعَهُ؛ فَهُوَ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَحِبُّ أَهْلَهُ وَأَتْبَاعَهُ الْعَامِلِينَ بِهِ وَالِدَّاعِينَ إِلَيْهِ؛ فَيُشِيبُهُم بِالْحَسَنِ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَى، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

لهذا جعل الله عزَّ وجلَّ التوفيقَ والسعادة، والخيرَ والهداية في أهله، وجعل الكافرين به أهل الغيِّ والشقاوة، والشرِّ والضلالة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْبَعُهُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفُتَيْسَةِ قُلُوبُهُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦-٧].

ولهذا أيضًا: فَإِنَّ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ وَالْعَدْلَ مَنْحَصَرٌ فِي أَحْكَامِ

هذا الدين وشعائره، وما عداه - مما يخالفه أو يضاده أو ينافيه - : فباطلٌ وشرٌّ وظلمٌ وفسادٌ؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال: ﴿وَأَرْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومما يعتقده ويوقن به: أنَّ هذا الدين ليس لقوم دون آخرين، وليس لطائفة دون أخرى، بل هو دين الله تعالى إلى الخلائق أجمعين؛ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأوطانهم، على مرِّ الدهور والأزمان، ما دامت الحياة على هذه البسيطة: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨].

وهم إلى ذلك متساوون في خطابه لهم، وحكمه عليهم، فليس فيه حكمٌ مختصٌّ بطائفةٍ من الناس دون غيرها، وليس لأحد أن ينقض عقائده أو يخرج عن أحكامه؛ وإنَّ علا قدره، وشرف

نَسْبُهُ: ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [المتحنة: ٣]، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَكْبَرُ ۖ فَمَا يَعْمَلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَةِ ءَامِنُونَ ۝﴾ [سبا: ٣٧]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

من حقائق الرضى بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً

ومما يعلمه ويجزم به من رضى بمحمد رسولاً: **أنه ﷺ**: «عبد الله المصطفى، ونبىّه المجتبى، ورسوله المرتضى، وأنه خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيّد المرسلين، وحبيب رب العالمين، وكل دعوة نبى بعده فغى وهوى. وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالثور والضياء»^(١)، فقد بعثه في آخر الزمان رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فمن بلغته دعوته فأمن به وأتبعه؛ اهتدى ونجا، ومن كذب به ورفض ما جاء به؛ ضلّ وهلك، وتبين تقرير هذا في الفقرة السابقة. وقال ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة؛ وبعثت إلى الناس عامة»^(٢)، وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به: إلا كان

(١) من كلام الإمام أبي جعفر الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة. وانظر شرحه في «شرح العقيدة الطحاوية» ١/١٣٩-١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

من أصحاب النار»^(١).

وهو آخر الأنبياء والرسل، وأفضلهم، وخاتمهم، وسيدهم، اصطفاه الله تعالى من خير الأقبام وأفضلها وأكرمها عنده؛ فجعل منهم خير رسله، وأنزل عليه أعظم كتبه، وبعثه بأفضل الشرائع وأتمها وأحبها إليه سبحانه، لهذا خصه بالمنزلة العالية، والمنح الجليلة. قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»^(٢)، وقال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، وأصطفى قريشا من كنانة، وأصطفى من قريش بني هاشم، وأصطفاني من بني هاشم»^(٣)؛ فقد أخرج الله تعالى من أوسط العرب نسبا، وأكرمهم حسبا، وأعلاهم كعبا، وأعظمهم جرثومة، وأشرفهم أصلا، وأطيبهم فرعاً»^(٤).

وأن النبي ﷺ مبلغ عن الله تعالى، لم يقل شيئا من رأيه فيما يتعلق بأمر الدين: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» [النجم: ٣، ٤]؛ لهذا فتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر؛ حتم لازم، قال تعالى: «وَمَا ءَأْتَكُمْ الرَّسُولُ فَاخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: «فَلَا وَرَيْكَ لَا

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٢٢٧٦) من حديث وائلة بن الأسقع رضي الله عنه.

(٤) حافظ الحكمي: «معارج القبول» ١١٢٧/٣.

يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥]،
والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جليلة.

سعادة في الدنيا ونجاة في الآخرة

فمن حقق هذه الأصول العظيمة وغيرها مما هو من
أصول وحقوق ولوازم الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد
رسولاً؛ فقد كملت هدايته، وتمت سعادته، ووفق للخير
والصلاح، وذاق طعم الإيمان؛ كما قال رسول الله ﷺ:
«ذاق طعم الإيمان: مَنْ رَضِيَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً،
وبمحمد رسولاً»^(١)، ومن ذاق طعم الإيمان فقد وجبت له
الجنة؛ بخبر الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «مَنْ رَضِيَ
بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة»^(٢)،
ومن كان من أهل هذه الصفة فقد وعده الله تعالى بالحياة
الطيبة، والهداية والأمن، وانتفاء الخوف والحزن في حقه،
قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٣]
[الأحقاف: ١٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَفْتَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا

(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «الصحیح» (١٨٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري
رضي الله عنه.

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُتِبَ تَوَعْدُونَ ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧]، قال ابن كثير رحمه الله: هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحًا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله وأن هذا العمل المأمور به مشروعٌ من عند الله -: بأن يُحييه الله حياةً طيبةً في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشتمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحدٍ حياةٌ إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال، والعبادة في الدنيا. وقال الضحاك أيضًا: هي العمل بالطاعة، والانشراح بها. والصحيح: أنَّ الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم^(١): عن عبد الله بن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه» وروى مسلم^(٢): عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً: يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ:

(١) «صحيح مسلم» (١٠٥٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٠٨).

فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتٍ مَا عَمِلَ بِهَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ؛ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»^(١).

على أنَّ هذه السعادة في الدنيا والسَّلامة في الآخرة؛ لا تكون على وجه الكمال والتمام إلا لمن حَقَّقَ هذه الأصول الثلاثة في نفسه اعتقادًا وقولًا وعملاً على أكمل وجهٍ وأتمَّه مما يكون عليه حال أولياء الله الأتقياء الصالحين، فإنَّ أَخْلَّ بشيءٍ من حقوقها، أو أنقص شيئًا من واجباتها ولوازمها، وأتى بما ينافيها من الاعتقادات والأقوال والأفعال؛ حُرِّمَ - في الدنيا والآخرة - من ذلك الوعد الإلهي، والعطاء الربَّاني؛ بِقَدْرِ ما كان منه من الإخلال والنقص والعيب والمنافاة، أما مَنْ أَتَى بما ينقضُّها وَيُبْطِلُها من كُلِّ وجهٍ؛ فقد حُرِّمَ الخيرَ كُلَّهُ، واستحقَّ الوعيد لا الوعد.

عِلَلٌ وَأَمْرَاضٌ فِي طَرِيقِ الرِّضَى

فَإِذَا عُلِمَ هَذَا فَلْيُعَلِّمْ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ مُعَرَّضٌ - بِدَوَاعِي النَّفْسِ وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ - إِلَى أَمْرَاضٍ وَعِلَلٍ قَلْبِيَّةٍ تُدْخِلُ عَلَيْهِ الْخِلَلَ وَالنَّقْصَ فِيمَا هُوَ بِسَبِيلِ تَحْقِيقِهِ مِنْ كَمَالِ الرِّضَى بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا.

وأَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَعِلَلُهَا كَثِيرَةٌ، تَرْجِعُ فِي مُجْمَلِهَا إِلَى نَوْعَيْنِ كَلْبِيِّينَ، يَتَوَارَدَانِ عَلَيْهِ، وَإِذَا اسْتَحْكَمَا فِيهِ كَانَ هَلَاكُهُ وَمَوْتُهُ، وَهُمَا: مَرَضُ الشَّهَوَاتِ، وَمَرَضُ الشَّبَهَاتِ. هَذَا أَصْلُ دَاءِ الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ عَافَاهُ اللَّهُ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَيْنِ الْمَرَضَيْنِ

(١) «تفسير القرآن العظيم» [التَّحْلُ: ٩٧].

في كتابه: أما مرض الشبهات - وهو أصعبهما، وأقتهما للقلب - ففي قوله تعالى في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَقَوْلَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها: مرض الجهل والشبهة والشك، وهو راجع إلى فساد العلم. وأمّا مرض الشهوة ففي قوله: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ أي: لا تلتن في الكلام فيطمع الذي في قلبه فجور وزنى. وهذا المرض راجع إلى فساد الإرادة، فما يكون في القلب من الأمراض كالرياء، والكبر، والعجب، والحقد، والحسد، والفخر، والخيلاء، وحب الرئاسة والعلو في الأرض؛ فسيبها إما من فساد العلم، وإما من فساد الإرادة، وإما باجتماع هذين الشرين.

مرض العنصرية القومية:

ومن تلك العلل التي تعرض على النفس؛ فيمرض القلب، ويضيق الصدر، وتخبو البصيرة، ويختل ميزان العقل، ويضعف الإيمان، ويغلب الهوى؛ مرض التعصب للقومية، والاعتزاز بالعنصرية، وعبودية الفكر والعقل للعرق واللسان، والعشيرة والقبيلة. وهو مرض خبيث متركب من نوعي أمراض القلوب: فساد العلم، وفساد الإرادة، فيجمع جهلاً وظلماً، وهذان أصلان لمفاسد عظيمة من: بطر الحق، وعمط الناس، واستسهال الكذب والدعاوى الباطلة، وتكذيب الحقائق وإنكار فضائل الغير،

والسخط على الله تعالى في قضائه وقدره، والكبر والعُجب،
والبغي والعدوان، والحقد والحسد، إلى غير ذلك ممّا تزيد
القلوب ظُلمةً، والنفوس خُبثًا وشرًّا، وقد تنتهي بها إلى الكُفر
المُخض، والانسلاخ من الدين والأخلاق. نعوذ بالله من الحور
بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى.

منافاة العنصرية القومية للرّضى والتسليم:

وإذ قد شرحنا بعض الأصول الجامعة لحقيقة الرّضى بالله
وبدينه وبرسوله ﷺ؛ فلنذكر الآن - بإشارة عامّة مختصرة - وجوه
منافاة النزعة القومية العنصرية لكمال ذلك، وربّما نقضها من
أصلها:

١ - فأول ذلك أن النعرة الجاهلية تدفع صاحبها إلى
الاعتراض على الله تعالى في خلقه حتى يودّ لو أنّ الله تعالى لم
يخلق إلا القوم الذين ينتمي هو إليهم، وكم سمعنا ممن أصيب
بهذا المرض يصرّح أنه ما كان لله - سبحانه - أن يخلق هؤلاء
القوم أو أولئك، وربّما اشتدّ في غيّه فرمى الربّ القدير بالخطيئة
والظلم والجهل، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وهذه
نزعّة شيطانية خالصة، فقد كان إبليس أول المعترضين على خلق
آدم - وهو أبو النّوع الإنساني - فمن اعترض على خلق بعض
ذريّته عليه السلام؛ كان متّبعا لللسنة الشيطانية القديمة، يحمله
على ذلك الكِبَرُ والعُجْبُ والغُرور، كما أخبر الله سبحانه عن
إبليس أنّه: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ
نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

٢ - وتدفعه تلك النّعرة الجاهلية - أيضًا - إلى الاعتراض

على الله تعالى في ملكه وتدبيره وحكمه، فالأمر كلُّ بيده سبحانه، يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، يرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرين، ويفضِّلُ بعضَ الناس على بعضٍ؛ بمقتضى حكمه وقضائه، فيأتي الجاهليُّ المأفونُ ويعترضُ على الربِّ العظيم في تصرفه في ملكه، فيريد أن يذلَّ من أعزَّهم الله، ويعزَّ من أدلَّهم الله، ويبخسَ من فضَّلهم الله تعالى وخصَّهم بمزيد كرامته حقَّهم ومكانتهم، فيحتقرهم ويقده فيهم، ويكذب خبرَ الله تعالى وخبر رسوله في تفضيلهم حسدًا منه واعتراضًا على الله عزَّ وجلَّ. وهذه منهجية جاهلية نبَّه عليها القرآن الكريم عندما اعترض المشركون الأولون على اختيار الله تعالى لمحمَّد بن عبد الله الأمي الهاشمي للرسالة الخاتمة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فقال الله تعالى في جوابهم: ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْخًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي: هلَّا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسُّدي، وابن زيد. قال الله تعالى رادًّا عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ أي: ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلى الله عزَّ وجلَّ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا يُنزلها إلا على أذكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا وأطهرهم أصلًا. ثم قال تعالى مبيِّنًا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من

القوى الظاهرة والباطنة.. وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قيل: معناه لِيُسَخَّرَ بعضهم بعضًا في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدي وغيره. وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضهم بعضًا. وهو راجع إلى الأول.

فانظر إلى هذه العقلية الجاهلية كيف اعترض أصحابها على نبوة الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام من غير مقتضى لذلك سوى أنه ليس بذاك العظيم حسب مقاييسهم الدنيوية المادية، فكان جوابهم أن رحمة الله تعالى - وهي هنا الوحي والرسالة - لا تخضع للمقاييس المادية والطبقية والعنصرية، وأن ما بين البشر من تفاوت فيها إنما هو لحكم عظيمة ومنافع جليلة، راجعة إليهم لو أنهم يستفيدون منها على وجه حسن.

٣ - وتدفعه تلك النعرة الجاهلية - أيضًا - إلى الإخلال بتوحيد الله تعالى في أسمائه الحسنَى وصفاته العُلَيَا، فلا يشاهد آثارها في خلق الله تعالى وتصرفه في ملكه، بل يشاهد ما ينافيها أو ينقضها، كما يعتقد كثير من الأعاجم - ممن حملهم تعصُّبهم لقوميَّتهم على ذم العرب واحتقارهم - أن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فجعل أعظم كتبه، وأشرف رسله، ودينه الكامل، ونعمته التامة الخاتمة: في أحقر أهل الأرض منزلةً، وأسوئهم حالاً، وأفسدهم أخلاقاً، وأوضعهم شأنًا، وأسخفهم عقلاً، وأبعدهم عن الحق والخير، ألا وهم العرب! معاذ الله تعالى من هذا القول الردي الذي لا يقوله إلا جاهل برَّبِّه، غافل عن أسمائه وصفاته، ولو قيل له: إن فلاناً أراد أن يُحمَل إنساناً أمانةً بالغَةِ الأهمية والقَدْر؛ فاختار من بين من يعرفهم: أردلهم وأخسهم! لقال هذا المعترضُ على ربِّه الحكيم: «إنَّ فاعل ذلك فاسد العقل

والاختيار، عديم الحكمة، غاية في الجهالة والظلم!» فكيف يصح أن يُنسب مثل هذا الصنيع لله رب العالمين: ﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

٤ - ومن آثار العصبية القومية الإخلال بتوحيد الله تعالى في العبادة والإخلاص والتوجه، وهو الغاية الكبرى، والوظيفة العظمى التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، لكن من شغلت العصبية القومية والتعرات الجاهلية فكره وقلبه؛ أتى له أن يقوم بهذا الواجب كما أمره الله تعالى به، فقلبه متعلق بغير الله تعالى: يعظم بني قومه وإن كان فيهم من ليس عظيمًا في ميزان الله، ويحبهم جميعًا لصلة الدم وإن كان الله تعالى يبغضهم - كلهم أو بعضهم - ويلعنهم؛ لكفرهم وفجورهم، ويواليهم وإن كان الله تعالى أمر بمعاداتهم، وفي مقابل ذلك: يحتقر من يستحق التعظيم لقيامه بأمر الله، ويبغض من يستحق الحب لطاعته وصلاحه واستقامته، ويتبرأ ممن يستحق الموالاة والنصرة بأمر الله تعالى. فإذا انحرف القلب عن منهاج الله؛ نطق اللسان بالباطل والزور، وسعت الجوارح بالظلم والعدوان، واستسهل صاحبه أن يشارك بني قومه في أعمالهم وصنائعهم لنصرة قوميّتهم، وفي أعيادهم وخصائصهم الجاهلية؛ فيخالطهم ويتعاون معهم: لا يتبرأ من ملجدهم، ولا ينفّر من فاسقهم، بل يخالطهم ويشاركهم ساكتًا عن باطلهم؛ فلا يجرؤ على نقد عقائدهم الفاسدة وعباداتهم المنحرفة ومنكراتهم الظاهرة، لأنّه لو فعل ذلك لفرّق بين بني قومه الذين لم تجمعهم بهم إلا رابطة

القومية. فيا لله! ما أعظم خطر النزعة القومية على عبودية القلب واللسان والجوارح لله رب العالمين!

٥ - ومن آثارها أيضًا: أنها تنافي كمال الرضى بالإسلام دينًا أو تنقضه، فقد جعله الله تعالى منهجًا لحياة المسلم، ونظامًا ضابطًا لإرادته وتصرفه، وجعل السعادة والتوفيق في الدنيا والنجاة في الآخرة بالقيام به، ولا يتيسر هذا إلا لمن تجرد له واستسلم لحكمه، والإنسان القومي إنما يظن أن صلاح نفسه وقومه بنصرة العرق والجنس، فهو مناج للصور والتصرف، ومصدر للتوفيق والسعادة، ونيل المكاسب، وبلوغ الآمال والغايات. فينتج من ذلك بعدهم عن الله، وعن دينه وشرعه، فإن كانت فيهم نقيّة تشبّت أفكارهم وتنازعت إراداتهم بين داعي الدين والقومية، وإلا صار حالهم - كما هو الغالب على هذا الصنف - الإعراض عن دين الله، ونبذ منهجيه وشرعه، ورمي من تمسك به، واختار الحياة بهديه؛ بكل قبيحة.

٦ - ومن آثارها أيضًا: إحياء شعارات الجاهلية التي قضى عليها الإسلام؛ لهذا نجد عند القوميّين حرصًا بالغًا على بعث وإحياء أعياد آبائهم الأقدمين أيام جاهليّتهم - ولا يشفع لهم تسميتهم لها بالمناسبات والذكريات، فالأسماء لا تغير من حقائق الأشياء -، ونجد عندهم أيضًا تعظيم رجالات الجاهلية ورموزها، وتتبع آثارها، والتعلّق بأصنامها وأوثانها، وصورها وبقايا أطلالها، وتقاليدها وعوائدها، بل نجد عندهم أيضًا: إحياء بعض معتقداتها وأساطيرها وألفاظها، ومفاهيمها حول الدين والكون والحياة؛ وغير ذلك من الأقوال والأفعال الكثيرة ممّا هو شرك محض، أو ذريعة إلى الشرك، ومخالفة لسُنن المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وسيجد القارئ في بعض الأحاديث الواردة في هذا الكتاب: أَنَّ
التَّعَرَّةَ القومية العنصرية هي من أمور الجاهلية التي بعث النبي ﷺ
بنقضها وإبطالها؛ فأحيائها إحياء لسنة من سنن الجاهلية الأولى،
والعياذ بالله تعالى^(١).

٧ - ومن آثارها السيئة على كمال الرضى بنبوّة محمد ﷺ :
أَنَّ من ابتلي بهذا المرض العضال من غير العرب لا يتأتَّى له ولا
منه الرضى التام والتسليم المطلق به ﷺ رسولاً مصطفىاً، ونبياً
مجتبىً، لأنَّه يرى أن الجنس الذي ينتمي هو إليهم أشرفُ
وأفضلُ، وأولى بالخصائص والمنح من سائر الأقوام - العرب
وغيرهم - فهو يؤمن به ﷺ ويتَّبِعُ دينه مع حَسْرَةٍ في صدره،
وحَيْرَةٍ في قلبه، واضطرابٍ في فهمه، حتَّى سمعنا ممَّن ابتلي
بهذا المرض - من أهل الصلاة والصوم والانتماء إلى الحركة
الإسلامية(!!) - يصرِّح أنه لا يفهم لماذا جعل الله تعالى رسوله
الخاتم من العرب؟! ولا يفهم لماذا جعل سبحانه رسالته العامّة
الخاتمة فيهم؟! لكنَّه يرضى ويُسلِّم لا بحبٍّ وسعادةٍ وانسراحِ
قلبٍ لحكمة الله تعالى وعدله ورحمته وعلمه، وإنَّما بشكٍّ وريبٍ
وحَسْرَةٍ وحيرة. فانظر ماذا تصنع القومية الجاهلية بدين أصحابها!
أما من نور الله عقله، وهدى قلبه، ووفَّقه للفهم عن الله تعالى؛
فيعلم يقيناً لا شكَّ فيه: أَنَّ الله تعالى لم يجعل رسالته الشريفة

(١) وأنصح القارئ بدراسة كتاب: «شرح مسائل الجاهلية التي خالف فيها
رسول الله ﷺ ما عليه أهل الجاهلية» لعلامة العراق جمال الدين أبي
المعالي محمود شكري بن عبد الله بهاء الدين بن أبي الثناء شهاب الدين
محمود الحسيني الآلوسي البغدادي، ولد في بغداد سنة (١٢٧٣هـ/
١٨٥٦م)، وتوفي فيها سنة (١٣٤٢هـ/١٩٤٢م) رحمه الله تعالى.

الزكية إلا في أشرف الأقوام وأزكاها في جنسها وعقلها وأخلاقها وطباعها، وأن هذا من مقتضى علمه وحكمته وعدله ورحمته، وأن الطعن في هذا إنما هو طعن في الله عز وجل واعتراض عليه، لهذا اتفق أئمة السلف الصالح على أن حب العرب إيمان وبُغضهم نفاق، وأنه لا يطعن في جنس العرب إلا من ينطوي على نوع نفاق.

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية التميمي (ت: ٧٢٨ هـ) رحمه الله: «إن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم: عبرانيهم، وسريانيهم، روميهم وفُرسِيهم، وغيرهم. وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم. فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً. وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم؛ لمجرد كون النبي ﷺ منهم - وإن كان هذا من الفضل - بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ: أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور. ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل الكرماني^(١) - صاحب الإمام أحمد - في وصفه للسنة التي قال فيها: «هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام

(١) المتوفى سنة (٢٨٠ هـ) رحمه الله، ترجم له الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢٤٤/١٣ (١٢٧) ووصفه بالإمام العلامة الفقيه، وقال: رحل وطلب العلم، ومائل حرب - يعني عن الإمام أحمد رحمه الله - من أنفس كتب الحنابلة، وهو كبير في مجلدين، قال أبو بكر الخلال (ت: ٣١١ هـ): كان رجلاً جليلاً، حثي المرؤذي على الخروج إليه.

وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها؛ فهو مبتدع خارج من الجماعة، زائل عن منهج السنة، وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد^(١)، وعبد الله بن الزبير الحميدي^(٢)، وسعيد بن منصور^(٣)، وغيرهم ممن جالسنا، وأخذنا عنهم العلم، وكان من قولهم: إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وساق كلاماً طويلاً، إلى أن قال: «وَنَعْرِفُ لِلْعَرَبِ حَقَّهَا وَفَضْلَهَا وَسَابِقَتَهَا وَنُجْبَتَهُمْ؛ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «حُبُّ الْعَرَبِ إِيْمَانٌ وَبِغْضُهُمْ نِفَاقٌ»^(٤)، ولا نقول

(١) هو الإمام الحافظ الفقيه إسحاق بن راهويه الحنظلي (ت: ٢٣٨ هـ) رحمه الله.

(٢) الإمام الحافظ الفقيه أبو بكر الحميدي المكي (ت: ٢١٩ هـ)، أجلُّ أصحاب سفيان بن عيينة، قال الحاكم: «كان البخاري إذا وجد الحديث عند الحميدي لا يعدوه إلى غيره». رحمه الله.

(٣) صاحب «السنن»، وهو إمام حافظ جليل، مات سنة (٢٢٧ هـ) رحمه الله.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٨٧/٤ عن أنس رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الهيثم بن جهمّاز وهو متروك الحديث، وعنه معقل بن مالك ضعيف الحديث. فالحديث ضعيف، بل إن كل الأحاديث الصريحة بذكر تفضيل العرب لا يصحُّ منها شيء، وقد خرّج معظمها العلامة الألباني رحمه الله في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١١٩٠-١١٩٢). وفي حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه - الآتي في آخر هذا الكتاب - وما في معناه من الأحاديث الصحيحة غنية عن الأحاديث الضعيفة، خاصة أن ذلك مقتضى الاصطفاء الإلهي لهم لحمل الرسالة وما يلحق ذلك من ميّزات وأحكام متقررة في الكتاب والسنة، لهذا قال العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله - بعد أن قرّر ضعف تلك الأحاديث -: بَيِّنَ أَنْ ذَلِكَ لَا يَنَافِي أَنْ يَكُونَ جِنْسُ الْعَرَبِ أَفْضَلَ مِنْ جِنْسِ سَائِرِ الْأُمَمِ، بَلْ هَذَا هُوَ الَّذِي أَوْمَنَ بِهِ، وَأَعْتَقَدَهُ، وَأَدِينُ اللَّهَ بِهِ؛ وَإِنْ كُنْتُ أَلْبَانِيًا، فإِنِّي مُسْلِمٌ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. ذلك =

بقول الشعوبية، وأراذل الموالي الذين لا يُحبُّون العرب، ولا يُقرُّون بفضلهم، فإنَّ قولهم بدعةٌ وخلافٌ». ويُروى هذا الكلام عن أحمد^(١) نفسه، في رسالة أحمد بن سعيد الإصطخري عنه؛ إن صحَّت^(٢). وهو قوله وقولُ عامة أهل العلم. وذهبت فرقة من الناس إلى أن لا فضلَ لجنس العرب على جنس العجم. وهؤلاء يُسمَّون: الشعوبية، لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، كما قيل: القبائل: للعرب، والشعوب: للعجم. ومن الناس من قد يفضِّل بعض أنواع العجم على العرب. والغالب أنَّ مثل هذا الكلام لا يصدرُ إلا عن نوع نفاقٍ: إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس، مع شبهات اقتضت ذلك، ولهذا جاء في الحديث: «حبُّ العرب إيمانٌ وبغضهم نفاقٌ»؛ مع أنَّ الكلام في هذه المسائل لا يكاد يخلو عن هوى للنفس،

= لأنَّ ما ذكرته من أفضلية جنس العرب هو الذي عليه أهل السنة والجماعة، ويدل عليه مجموعة من الأحاديث الواردة في هذا الباب منها قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...». وساق حديث واثلة.

(١) يعني إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ) رحمه الله تعالى.

(٢) تجد رسالة الإصطخري في ترجمته في «طبقات الحنابلة» للقاضي ابن أبي يعلى ١/ ٢٤-٣٦؛ بروايته عن الإمام أحمد، وساقها بتمامها، ونقل منها ابن مفلح في «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد» ٨٤/١. وممَّن شكَّك في صحَّتها أيضًا الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» ١٣٦/١٨. والإصطخري: هو أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسي، لم يذكروا في ترجمته سوى أنه روى عن الإمام أحمد أشياء، منها هذه الرسالة. ووقع عند ابن تيمية - كما ترى -: (أحمد بن سعيد)، وهو خطأ.

ونصيب للشيطان من الطَّرفَيْنِ^(١)، وهذا مُحَرَّم في جميع المسائل.

(١) يشيرُ شيخ الإسلام رحمه الله إلى ما قد يكون من طرف بعض العرب أيضًا من الانحراف في فهم تفضيل الله تعالى لجنسهم ومن الهوى والبغي في ذلك، كما حصل عند القوميَّين العرب من جعل القوميَّة العربية مادة للفكر والتصور، وبديلًا عن المنهج الإلهي، ومحورًا للتعصب والعنصرية. وقد تصدَّى أئمة العلم والدعوة من العرب وغيرهم لنقض مقولاتهم، منهم إمام العصر الراحل عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله في رسالته: «نقد القومية العربية». وقال العلامة الألباني رحمه الله - بعد أن قرَّرَ أفضلية العرب في كلامه السابق -: ولكن هذا ينبغي ألاَّ يحمل العربيَّ على الافتخار بجنسه، لأنه من أمور الجاهلية التي أبطلها نبينا محمد العربيُّ ﷺ، كما ينبغي أن لا نجهل السبب الذي به استحق العرب الأفضلية، وهو ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم، الأمر الذي أهَّلهم لأن يكونوا حملة الدعوة الإسلامية إلى الأمم الأخرى، فإنه إذا عرف العربي هذا وحافظ عليه؛ أمكنه أن يكون مثل سلفه عضواً صالحاً في حمل الدعوة الإسلامية، أما إذا هو تجرد من ذلك فليس له من الفضل شيءٌ؛ بل الأعجميُّ الذي تخلَّق بالأخلاق الإسلامية هو خير منه دون شك ولا ريب، إذ الفضل الحقيقي إنما هو أتباع ما بعث به محمد ﷺ من الإيمان والعلم، فكلُّ مَنْ كان فيه أمكن؛ كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحددة في الكتاب والسنة، مثل: الإسلام، والإيمان، والبرِّ، والتقوى، والعلم، والعمل الصالح، والإحسان، ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو أعجمياً، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». رواه مسلم، ولهذا قال الشاعر العربيُّ:

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كُرُمَتْ يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَكَبَّلُ
تُبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تُبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وجملة القول: إنَّ فضل العرب إنما هو لمزايا تحقَّقت فيهم، فإذا ذهبت بسبب إهمالهم لإسلامهم ذهب فضلهم، ومن أخذ بها من الأعاجم كان خيراً منهم: «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى»، ومن هنا يظهر ضلال من يدعو إلى العروبة، وهو لا يتَّصف بشيء من خصائصها المفضَّلة، بل هو أوروبي قلباً وقالباً! قلتُ: وكلام الألباني الأخير متعلِّق بالتَّوَع لا بالجنس؛ فتنبّه.

فإنَّ الله قد أمر المؤمنين بالاعتصام بحبل الله جميعاً، ونهاهم عن التَّفَرُّق والاختلاف، وأمرهم بإصلاح ذات البين، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسَّهر»^(١). وقال ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباعدوا، ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم الله»^(٢)؛ وهذا حديثان صحيحان. وفي الباب من نصوص الكتاب والسنة ما لا يُحصى^(٣).

قلتُ: لهذا كله كان هذا الأصل - وهو اعتقاد تفضيل العرب - متقرِّراً عند أهل الإسلام والسنة، والعلم والفضل، وإن كانوا من غير العرب، فهذا الفقيه المحدث العلامة أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم، المشهور بالحافظ العراقي (ت: ٨٠٦ هـ) رحمه الله؛ قد ضاق صدره ممَّا كان في زمانه من غلبة الأعاجم، والانتقاص من العرب، فدفعته غيْرته الدينيَّة الخالصة إلى تأليف كتاب جامع للأحاديث المروية في هذا الباب، سمَّاه: «مَحَبَّة القُرْب في محبة

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» ٤١٩/١-٤٢٢، ثم ساق شيخ الإسلام رحمه الله الأحاديث الدالة على فضل العرب، وبَيَّن ضعف بعضها، وساق حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه - الآتي في آخر هذا الكتاب - وهو في «صحيح مسلم» وهو العمدة في هذا الباب، ونقل المؤلف رحمه الله من كلام شيخ الإسلام أيضاً وهو تنمة ما هنا، فراجع هناك فإنه نفيسٌ جداً.

العَرَبِ»، هذا وهو لا ينتسب إليهم، بل هو كُرْدِيٌّ صَلِيبَةٌ^(١)، لكَنَّهُ قام بما أوجبَه الله تعالى على أهل العلم وأخذ عهده عليهم من بيان الحق، وعدم كتمان العلم، وهذا هو صنيع أتباع الرُّسل عليهم الصلاة والسلام القائمون لله في كلِّ عصر بحجة، وليس كحال من انتسب إلى الدعوة الإسلامية؛ ثمَّ جعل منهجه كتم الحق والتلبيس على الناس، والسَّعي لإرضائهم واسترضائهم بالسكوت عن ما عندهم من جهل بأمر دينهم أو خلل وانحراف عنه، وإشغالهم بما يوافق أهواءهم من إرادة الدُّنيا بأمر الآخرة، فالله حسيبهم، وإليه منقلبهم.

لا يصلحُ آخرُ هذه الأُمَّة إلا بما صلح به أوَّلُها:

فهذه جملة أمورٍ أحببتُ الإشارة إليها، وهي من الوجهة الدينية المحضة، وليس الغرض التطرق إلى المسألة القومية من الوجهة الفكرية والتاريخية والسياسية، فذلك أمر يطول البحث فيه، وقد كُتِبَ فيها الكثير من البحوث والمؤلفات، وهي على اختلاف مناهجها ومقاصدها قد تكون مفيدة في

(١) صليبة: أي من أصلاهم، فقد نقل الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» ١٧١/٤ عن أبي زرعة ولي الدين أحمد ابن الحافظ العراقي (ت: ٨٢٦ هـ): «أنَّ والده عُرف بالعراقيِّ انتساباً لعراق العرب؛ وهو القطر الأعظم، وإلا فهو كُرْدِيٌّ الأصل، أقام سلفه ببلدة من أعمال إربل [أربيل]، يقال لها: رازنان، ولهم هناك مآثر ومناقب، إلى أن تحوّل والده لمصر وهو صغير مع بعض أقربائه». ووصفه تلميذه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «إنباء العُمَر بآبناء العُمَر» ٢٧٥/٢ بأنه: «المهرانيُّ المولد، العراقيُّ الأصل الكرديُّ».

بابها، على أنّها لا تستطيع أن تهدي العقول، وتشفي القلوب، إلا من حيث تضمنتها للخطاب الديني الصحيح - إن تضمنتها -، فإنّ الناس يتفاوتون في مداركهم ومقاصدهم وإراداتهم، وفي فهمهم وتفسيرهم لحركة الكون والحياة والنّاس، فمن ضبط فهمه وحكم عقله بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ومنهج سلف الأمة الصّالح: وفق للحق والصواب والخير، ومن انطلق يبحث في زبالات الأفكار البشرية عن الرأي والرأي الآخر: لم يزد إلا حيرة واضطراباً، ولم يرجع منها إلا بتيه وضلال.

لهذا كلّ رأينا أن نشارك في نشر هذه الرسالة القيّمة: «الأحاديث النبوية في ذمّ العنصرية الجاهليّة» لأخينا الراحل فضيلة الشيخ الدكتور عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم؛ رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنّاته^(١)، وقد جمع فيها جملة طيّبة من أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع الهامّ، وهي كافية في تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وهداية الضالّ، من غير تكلف ولا تشدق ولا تفلسف، ومن لم ينفعه حديث رسول الله فلا نفعه الله!

(١) توفي في الرياض ليلة السبت ١٣/٢/١٤٢٥هـ إثر حادثٍ مروريّ. ومن أحب الاطلاع على ترجمته وآثاره العلمية فعليه بهذا الموقع على الشبكة العالمية:

<http://www.burjes.com>

وقد اعتمدنا في هذه الطبعة على الطبعة الأولى: مكتبة الرشد، الرياض: ١٤٢٦ هـ، بإذن خاص من ورثة المؤلف رحمه الله وجزاهم خيراً. وأضفتُ إلى الكتاب تعليقات يسيرة جعلتها بين معقوفتين هكذا: [...].

تميز دعوة منهاج النبوة عن الدعوات البدعية:

ويأتي سعينا في طبع ونشر هذا الكتاب لأداء بعض ما يجب علينا من النصيحة لقومنا، وإرادة الخير لهم، والحرص على إيصال الحق والهدى إليهم، وهذا هو منهج رسل الله عليهم الصلاة والسلام الذين بدؤوا قبل كل شيء بإصلاح أقوامهم، وكان أول ما بدؤوا به معهم إصلاح عقائدهم وعباداتهم، والمجاهرة بإنكار ما كان فيهم من موبقات الجاهلية ومنكراتها، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال أول الرسل نوح عليه السلام لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢]، وبنحو هذا أخبر ربنا سبحانه عن دعوة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الرسل الكرام، كلُّ قد بدأ بدعوة قومه بما يخالف أهواءهم وموروثاتهم وعوائدهم، ولم يكن نبي ولا رسول قط: «نموذجاً للزعم المندفع العصبي المزاج»، وحاشاهم من أن يبدو على أي مناهجهم: «التعصب القومي كما يبدو الانفعال العصبي»، بله أن: «يُنسيه التعصب والانفعال استغفاره وندمه وخوفه وترقبه»؛ كما زعم جاهل بمراتب الأنبياء وحقوقهم،

وبالغايات والمقاصد التي بعثوا من أجلها؛ كما أخبر ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [التَّحَلُّ: ٣٦]، وقال تعالى - بعد أن ذكر أسماء جملة من الرسل عليهم السلام -: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥) [النساء: ١٦٥].

فمن أراد أن يتبع هداهم، ويسير على غُرَزِهِمْ فعليه بتصحيح النية، والإخلاص في الدعوة، والتجرد للحق، والجهربه، وأداء النصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم. وهكذا كان منهج السلف الصالح قديماً وحديثاً في صفائه وبهائه واستعلائه على الأغراض الدنيوية والمقاصد الدنيئة، أما تحويل الدعوة الإسلامية إلى مشروع مُوَأَمَّةٍ لأهواء الناس ورغباتهم ونزعاتهم، ومنازعتهم في دنياهم؛ فهو انحراف عن منهاج النبوة، وخيانة للمدعوين وإساءة إليهم؛ لأنهم لا يزدادون بليٍّ عُقْنُ الدعوة، وتحريف خطابها الدِّينِيِّ؛ إلا اغتراراً بما هم عليه من جهلٍ وخطإٍ وباطلٍ وضلالٍ، في الوقت الذي هم فيه أحوج ما يكونون لمن يعينهم على الخروج من ظلمات الجهل، وقيود النَّفْسِ والشيطان. وهذا ما يراه كل باحث منصف في آثار الدعوات المنحرفة على أصحابها، حيث لم يستفيدوا - رغم كثرة النشاطات والمؤسسات والأموال والأعمال - شيئاً يقربهم إلى الله تعالى ويرفعهم عنده؛ لا علماً نافعاً، ولا عملاً صالحاً - إلا ما شاء ربُّك -، إنما مدَّتْهم تلك الدعوات بمزيد تزيينٍ وغيٍّ، فازدادوا قناعةً بما هم عليه من النَّزعة القومية الجاهلية، حيث صُبغت بصبغة إسلامية خادعة، ظاهرها الرحمة وباطنُها من قبلها: مقاصد مادية،

وأهداف حزبيّة، ومنازعة على الدنيا ومكاسبها.

ولما كان لفساد المقاصد والانحراف عن السنة أثرًا بالغًا على نتائج التصرفات والأعمال؛ صار ما نراه من نتائج أعمالهم عبرة لكلٍّ معتبرٍ: فأتباعهم خليط غير متَّفِقٍ ولا متجانسٍ لا في العقيدة ولا في المنهج ولا في الفكر ولا في التصرف. فإذا وُحِّدَت مواقفهم حزبيّة بغیضة ومصالح مشتركة ومنافع متبادلة؛ فرَّقَت قلوبهم عقائد متناقضة، واهتمامات متباينة، وإرادات متدافعة؛ فأصابتهم بالوحشة والحيرة والتناقض.

وإن من الشواهد القوية التي تُنادي بإفلاس المناهج المنحرفة عن منهاج النبوة أن تَعَمَدَ الحركة الإسلامية إلى لبوس لباسٍ قوميةٍ من القوميات لكسب قلوب وغنائية أهلها، وتعمدَ - في الوقت نفسه - إلى لبوس لباسٍ قوميةٍ أخرى لاسترضاء قوم آخرين، لتربطهم جميعًا بتنظيمها العالمي، وتسخرهم لأهدافها السياسية ومشاريعها الحزبيّة، وهي تعلم جيّدًا أن في ذلك إقرارًا، بل تقويةً، بل أسلمةً وتأصيلًا لما بين أنصار القوميتين من نَفَارٍ وعداءٍ وأحقادٍ وضمائِن. فكان من نتائج ذلك أن صار من يتصدّر للدعوة منهم قوميًّا أكثر من القوميّين، وصار ذلك عنده دينًا يتقرَّب به إلى الله تعالى، بعد أن كان معصيةً تنفرُ فطرته منها، ويستنكف أن يُنسب إليها.

فإذا رأى من هدى الله قلبه ونور بصيرته هذه الدعوات الحائرة العائرة؛ حمد الله تعالى على السلامة، وزاد إيمانًا بالله لا يصحُّ إلا الصحيح وهو الاستقامة على منهاج الله تعالى الذي وعد الله تعالى أهله بالخير كلّ عاجله وآجله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].
فاوصي نفسي وجميع من شرح الله صدره لدعوة التوحيد والسنة،
وهده - بفضله سبحانه - للطريقة السلفية القويمة: أن يشبثوا على
ذلك، ويتشبثوا به، ويعضوا عليه بالنواجذ، ولا يغترّوا بالدعوات
الزائفة الخداعة؛ وإن كسب أصحابها دنياهم بخسارة آخرتهم، أو
استطاعوا صرف وجوه الناس إليهم بانصرافهم عن هدي نبيهم،
فإنّ مآلها إلى ضياع، وسعيها في خسران، فالواجب الاشتغال بما
ينفع من العلم النافع، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله تعالى،
والسعي لتصحيح عقائد الناس وعباداتهم، والصبر على جميع ما
يكون في هذه السبيل من ابتلاءات ومصائب، وشدائد ومحن،
فلا تنال ولاية الله، ولا يُضمن السلامة من الخُسران إلا بذلك:
﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾، جعلني الله وإياكم
منهم، بمنّه وكرمه. آمين! آمين! والحمد لله ربّ العالمين.

وكتبه لكرم

عبد الحق بن محمد بن عبد الحق

١٤٢٨/٥/٢٠ هـ



الآخِارِثُ النَّبَوِيُّ فِي ذَمِّ الْعَنْصَرِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ

انتقاء

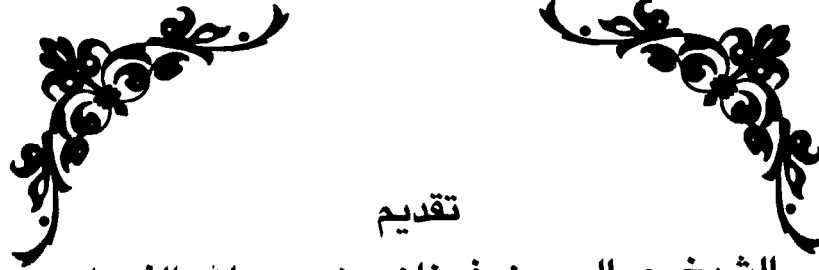
عبد السلام بن برجس العبد الكريم

تقريب

صاحب الفضيلة الشيخ العالم بقة السلف

صالح بن فوزان الفوزان

نفع الله به ومتع به



تقديم

الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه
وبعد:

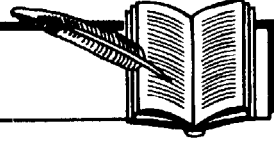
فقد قرأت الرسالة المسماة: «الأحاديث النبوية في ذم
العنصرية الجاهلية» انتقاء الشيخ عبد السلام بن برجس
العبد الكريم، فوجدتها - والحمد لله - رسالة جيدة مفيدة في
موضوعها مبنية على أدلة قوية من الكتاب والسنة في مسألة كان
الناس فيها على طرفي نقيض، فأبان فيها صاحب هذه الرسالة
وجه الحق على ضوء الكتاب والسنة وكلام أهل العلم - أثابه الله،
ونفع بعلمه وبما يقدمه من كتابات وغيرها .. وصلى الله على نبينا
محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه:

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان



المقدمة



الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله.

أما بعد: لقد ابتلي كثير من أهل الإسلام في هذه الأزمان بخصلة مشينة، يمتد جذرها إلى زمن الجاهليين المشركين، وكانت حرب هذه الخصلة مقصداً من مقاصد بعثة رسول الله ﷺ إلى العالم، تلك هي خصلة العصبية الجاهلية، التي هي قاعدة الخروج عن شرع الله وحكمه، وأساس الفساد في دين الناس ودنياهم. بُعث رسول الله ﷺ، فأبطل هذه القاعدة الجاهلية بفعله الشريف وقوله المنيف، بل نزل القرآن الكريم بإبطالها وإحلال القاعدة الشريفة مكانها:

﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ
ءَامِتُونَ ﴿٣٧﴾ [سبا: ٣٧].

وهذا هو المناسب لكون دين الله تعالى الإسلام عامًا لجميع
الثقلين: الجن والإنس، كما أنه المناسب لدين باقي إلى قيام
الساعة.

لقد كان أهل الجاهلية متفرقين ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ﴾، لا يحكمهم دين ولا عقل سليم، قويهم يأكل ضعيفهم
﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، تُفنيهم الحروب أجيالا
بعد أجيال من أجل استغاثة رجل بقبيلته ولو على باطل، ونحو
ذلك من تفاهات الأسباب، وحقيرات البواعث.

فجاء الإسلام ماحياً كل هذه الظواهر المقيمة في حياتهم،
حيث ساوى بينهم في الحقوق، وجعل شعار عصبيتهم:
«الإسلام»، وفاضل بينهم بالتقوى وطاعة الله تعالى، فلا فضل
لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على
أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَى﴾.

قال الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، ولا سبيل إلى انتشار الإسلام
كما كان أول أمره إلا إذا ألقى المسلمون جميع الشعارات إلا
شعار الإسلام، فصارت موالاتهم ومعاداتهم على هذا الدين
القيوم، إذا أحبوا: أحبوا الله، وإذا أبغضوا: أبغضوا الله، بذلك
تُنال ولاية الله عز وجل: ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾.

إنَّ معرفة الإنسان لقبيلته، وانتسابه لها، والمحافظة على الأنساب لا يُذمُّ في الشرع؛ بل جاء عنه ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصْلُونُ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»^(١)؛ إنَّما المذموم الافتخار بالقبائل، وذمُّ أنساب النَّاسِ، واحتقار من لم يُعرَف بقبيلة؛ فتلك دعوى الجاهلية، تلك الدَّعوة المنيئة. وتذكيراً لنفسي وإخواني المسلمين جمعتُ بعض الأحاديث والآثار في هذا الباب؛ إذ هي كفيلة بنزع ما قد يعلق بالقلوب من عنصرية بغیضة، وعصبية جاهلية، فوجب التسليم والقبول لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ [النور: ٥١-٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣٦) [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) [النساء: ٦٥].

هذا وليعلم أنني لا أريد بما كتبتُ هاهنا إبطال الأنساب، أو تمزيق القبائل، كلاً؛ فإنَّ شرف القبيلة فضلُ الله يؤتيه من يشاء: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) [القصر: ٦٨]، بل نريد أن

(١) حديث صحيح، وهو (الحديث التاسع عشر) الآتي.

تكون القبليّة ملتزمةً شرع الله، واقفةً عند حدوده؛ فلا تسلكُ مسلك الجاهلية في الافتخار والتعاضم بغير حقٍّ، بل تكون عزوتها الإسلام، وفخرها التقوى، وشعارها الذي تجتمع عليه: دينُ الله تعالى، فقد كان شعارُ المهاجرين في الحروب: «عبد الله»، وشعارُ الأنصار: «عبد الرحمن». رواه أبو داود في «السُنن»^(١).

وفيها - أيضاً - عن المهلب بن أبي صفرة: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنْ بَيَّتْكُمْ الْعَدُو، فَلْيَكُنْ شَعَارُكُمْ: حَم لَا يُنْصَرُونَ». حديثٌ صحيحٌ^(٢).

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

كتب

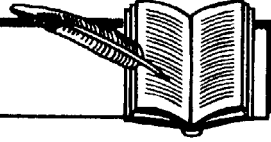
عبد السلام بن برجس العبد الكريم

الرياض ١٤٢٠/٢/٢٠ هـ

(١) [برقم: (٢٥٩٥)]. وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٢) [«السُنن» (٢٥٩٧)، وأخرجه أيضاً الترمذيّ في «الجامع» (١٦٨٢)، وقال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» [غافر: ١]: إسناده صحيح. وخرّجه الألباني في «الصحيحة» (٣٠٩٧). وقوله: «حم لا ينصرون» بصيغة المجهول، معناه بفضل السور المفتحة بـ: (حم) ومنزلتها من الله لا ينصرون. قال الخطابي: معناه الخبر، ولو كان بمعنى الدعاء لكان مجزوماً، أي: لا ينصروا، وإنما هو إخبار كأنه قال: والله إنهم لا ينصرون. وهذا اللفظ فيه التفاؤل بعدم انتصار الخصم مع حصول الغرض بالشعار، وهو العلامة في الحرب، يقال: نادوا بشعارهم أو جعلوا لأنفسهم شعاراً. والمراد أنهم جعلوا العلامة بينهم لمعرفة بعضهم بعضاً في ظلمة الليل هو التكلم عند أن يهجم عليه العدو بهذا اللفظ. يُراجع: «تحفة الأحوذى» للمباركفوري ٢٦٩/٥، و«نيل الأوطار» للشوكاني [٦٦/٨].

الحديث الأول



عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُّوهُ وَلَا تَكْنُوهُ».

رواه البخاري في «الأدب المفرد»^(١)، وأحمد في «المسند»^(٢)، وفي لفظ له: «كُنَّا نُوَمِّرُ إِذَا الرَّجُلُ تَعَزَّى بِعِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ: فَأَعِضُّوهُ بِهَنْ أَبِيهِ، وَلَا تَكْنُوهَا».

قوله «من تعزَّى» أي: انتسب وانتمى^(٣).

وقوله: «بعزاء الجاهلية» أي: الدعوى للقبائل بأن يقول: يا لتميم، أو يا عامر، وأشباه ذلك^(٤).

(١) (٤٢٧/٢) [برقم: (٩٦٣)]. وأورده الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٧٤١)، وخرَّجه في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩).

(٢) (١٣٦/٥) [رقم: (٢١٢٣٣)].

(٣) قاله الكسائي. «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣٠١/١)، وينظر «لسان العرب» (٥٣/١٥).

(٤) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣٠١/١).

[وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: معنى قوله: «من تعزَّى بعزاء الجاهلية» يعني: يعتزى بعزواتهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة مثل =

وقوله: «فأعضوه بهن أبيه» العَضُّ: الإمساك على الشيء بالأسنان^(١). و«الهن» ذَكَرُ الرجل. والمعنى: قولوا له: أعضض بأير أبيك، ولا تكنوا عن «الأير» بلفظ: «الهن»، تنكيلاً وتأديباً لمن دعا دعوى الجاهلية^(٢). قال البغوي في «شرح السنة»^(٣): قوله: «بهن أبيه» يعني ذكره. يريد يقول له: أعضض بأير أبيك، يجاهره بمثل هذا اللفظ الشنيع رداً لما أتى به من الانتماء إلى قبيلته والافتخار بهم. اهـ.

وقد فعل ذلك أبي بن كعب رضي الله عنه راوي الحديث،

= قوله: يا لقيس! يا ليمن! ويا لهلال! ويا لأسد! فمن تعصّب لأهل بلده أو مذهبه أو طريقته أو قرابته أو لأصدقائه دون غيرهم؛ كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله تعالى معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله، فإن كتابهم واحد، ودينهم واحد، ونبيهم واحد، وربهم إله واحد لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٣) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٤) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَيْنِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦) [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٥]. (مجموع الفتاوى: ٤٢٢/٢٨).

وقال أيضاً: وكل ما خرج عن دعوة الإسلام والقرآن: من نسب، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة؛ فهو من عزاء الجاهلية. (دقائق التفسير: ٤٥/٢).

(١) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٤/٤٨).

(٢) «لسان العرب» (٧/١٨٨).

(٣) «شرح السنة» (١٣/١٢٠).

فإنَّ سبب هذا الحديث أنه سمع رجلاً قال: يا لفلان! فقال له أبي: اعضض بهن أهلك! ولم يكن. فقال الرجل: يا أبا المنذر؛ ما كنت فحاشاً! فقال أبي: إني لا أستطيع إلا ذلك عملاً بقول النبي ﷺ: «مَنْ تَعَزَّى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْضُوهُ بِهِنَّ أَبِيهِ، وَلَا تَكُنُوا»^(١).

وأمر بذلك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «من اعتز بالقبائل فأعضوه أو فأمصوه» رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»^(٢).

بل كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: «إذا تداعت القبائل فاضربوهم بالسيف حتى يصيروا إلى دعوة الإسلام». رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»^(٣) أيضاً.

ومعنى: «يصيروا إلى دعوة الإسلام» أي: عزاء الإسلام، أي يقول: يا للمسلمين. وقد جاء أثر عمر رضي الله عنه هذا عند أبي عبيد بلفظ: «سيكون للعرب دعوى قبائل، فإذا كان ذلك فالسيف السيف، والقَتْل القتل حتى يقولوا: يا للمسلمين»^(٤).

وفي لفظ نحوه لابن أبي شيبة - أيضاً -^(٥): «يقولون: يا أهل الإسلام، يا أهل الإسلام».

(١) [سبب استشهاد أبي بن كعب رضي الله عنه بهذا الحديث؛ مذكور في رواياته بالفاظ متقاربة].

(٢) (٣٣/١٥).

(٣) المصدر السابق.

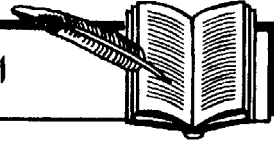
(٤) (٣٠١/١).

(٥) «المصنف» (٣٢/١٥).

وذكر أبو عبيد في «غريب الحديث»^(١): أن رجلاً قال
بالبصرة: يا لعامر! فجاء النابغة الجعدي بعصية له، فأخذته شُرطُ
أبي موسى، فضربه أبو موسى خمسين سوطاً بإجابته دعوى
الجاهلية. اهـ.



الحديث الثاني



عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ عُمِيَّةٍ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ؛ فَيُقْتَلُ: فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ».

رواه النسائي في «السنن» كتاب تحريم الدم، باب: التغليظ
فيمن قاتل تحت راية عمية^(١).

وفي لفظ: «وَمَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةِ عُمِيَّةٍ يَغْضَبُ لِلْعَصَبَةِ وَيُقَاتِلُ لِلْعَصَبَةِ فَلَيْسَ مِنْ أُمَّتِي».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمامة^(٢).

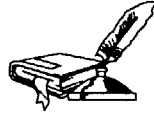
قوله: «عُمِيَّة» الدعوة العمياء، فسرّها الإمام أحمد - رحمه الله بقوله: الأمر الأعمى للعصبية لا يستبين ما وجهه. والعصبة: بنو العم، والعصبية أخذت من العصبة^(٣).

(١) رقم (٤١١٤). [وهذا اللفظ بنحوه عند مسلم في «صحيحه» (١٨٤٨) (٥٣) أيضاً].

(٢) (١٤٧٧/٣) رقم (١٨٤٨) (٥٤).

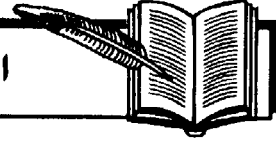
(٣) ينظر «لسان العرب» (٩٧/١٥)، و«المفهم» للقاضي عياض (٢٥٨/٦).

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إضافة الأمر إلى الجاهلية يقتضي دَمَهُ، والنهي عنه، وذلك يقتضي المنع من أمور الجاهلية مطلقاً^(١). اهـ.



(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢١٩).

الحديث الثالث



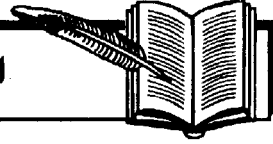
عن جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصَبِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً: فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ».

أخرجه مسلم في «صحيحه»^(١).



(١) (١٤٧٨/٣ رقم ١٨٥٠).

الحديث الرابع



عن أبي عُبَيْة - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خُذْهَا مِنِّي وأنا الغلامُ الفارسي! فالتفت إليّ رسولُ الله ﷺ فقال: «فَهَلَّا قُلْتَ: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا الْغُلَامُ الْأَنْصَارِيُّ!».

أخرجه أبو داود في «سننه»، كتاب الأدب، باب: في العصبية^(١).

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: حَضَّه رسولُ الله ﷺ على الانتساب إلى الأنصار وإن كان بالولاء، وكان إظهارُ هذا

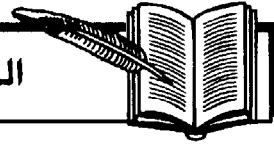
(١) (٣٤٣/٥)، [رقم: (٥١٢٣)]. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنّف» ٢٩٥/١٢، وفي «المسند» (٥٤٥)، وأحمد في «المسند» ٢٩٥/٥ (٢٢٥١٥)، وابن ماجه (٢٧٨٤)، والدولابي في «الكنى» (٢٧٠) من طريق: محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عبد الرحمن بن أبي عُبَيْة، عن أبي عُبَيْة، به. وهذا إسناد ضعيف لجهالة عبد الرحمن بن أبي عُبَيْة، لم يرو عنه إلا اثنان، ولم يذكره في «الثقات» غير ابن حبان، وقال: يروي المراسيل. لهذا قال الذهبي في «الكاشف»: وَثَق. وقال ابن حجر: مقبول. يعني: حيث يتابع. والحديث ضعّفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٥٥٩).

أحبَّ إليه من الانتساب إلى فارسَ بالصرافة، وهي نسبةٌ حقٌّ ليست محرَّمةً. ويُشبهُ - والله أعلم - أن يكون من حكمة ذلك أنَّ النفسَ تحامي عن الجهة التي تنتسب إليها، فإذا كان ذلك لله كان خيراً للمرء^(١). اهـ.



(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢١٩).

الحديث الخامس



عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرُؤُ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ سَبَّ الرِّجَالَ سَبَّوْا آبَاءَهُ وَأُمَّه. قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرُؤُ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَطَعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَالْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية. وفي الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن^(١). ومسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان، واللفظ له^(٢).

قيل: إِنَّ الرجل المذكور هو بلال المؤذن مولى أبي بكر، وتعييره له بأُمِّه حيث قال له: يا ابن السوداء!^(٣).

(١) (٨٤/١ فتح) و(٤٦٥/١٠) [رقم: (٣٠) و(٦٠٥٠)].

(٢) (١٢٨٢/٣ رقم ١٦٦١).

(٣) ينظر «فتح الباري» (٨٦/١)، وقد روى هاتين الزيادتين البيهقي في «الشعب» (٢٨٨/٤).

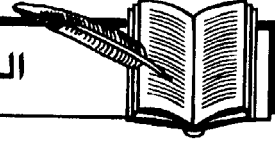
قال الحافظ: يُؤخذ منه المبالغة في ذم السبِّ واللَّعنِ لما فيه من احتقار المسلم، وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأنَّ التفاضل الحقيقي بينهم إنَّما هو بالتقوى، فلا يفيدُ الشريفَ النسبِ نسبُه إذا لم يكن من أهل التَّقوى وينتفعُ الوضيعُ النَّسبِ بالتَّقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(١). اهـ.



(١) «فتح الباري» (١٠/٤٦٨).

[وقال النووي في «شرح مسلم»: قوله ﷺ: «فيك جاهلية» أي: هذا التعبير من أخلاق الجاهلية، ففك خُلُق من أخلاقهم، وينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم، ففيه النهي عن التَّعيير، وتنقيص الآباء والأمهات، وأنه من أخلاق الجاهلية. قوله: من سبَّ الرجال سبوا أباه وأمه. معنى كلام أبي ذرِّ الاعتذار عن سبِّه أمَّ ذلك الإنسان، يعني: أنه سبَّني، ومن سبَّ إنساناً سبَّ ذلك الإنسان أبا السابِّ وأمه، فأنكر عليه النبي ﷺ، وقال: هذا من أخلاق الجاهلية. وإنَّما يباح للمسبوب أن يسبَّ السابِّ نفسه بقدر ما سبَّه، ولا يتعرض لأبيه ولا لأمه].

الحديث السادس



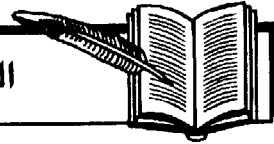
عن أبي ذر رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قال له: «انْظُرْ فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ وَلَا أَسْوَدَ إِلَّا أَنْ تَفْضُلَهُ بِتَقْوَى». أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

قال المنذري في «الترغيب والترهيب»^(٢): رواه ثقات مشهورون إلا أن بكر بن عبد الله المزني لم يسمع من أبي ذر.

(١) (١٥٨/٥)، [رقم: (٢١٤٠٧) من طريق: أبي هلال، عن بكر، عن أبي ذر].

(٢) (٥٧٤/٣). [ونقله الألباني في «غاية المرام» (٣٠٨)، وقال: فهو منقطع، وأبو هلال اسمه: محمد بن سليم الراسبي وهو صدوق فيه لين، فالسند ضعيف، لكن يشهد له ويقويه حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، فَلَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ؛ إِلَّا بِالتَّقْوَى» رواه الطبراني في «الأوسط» [٤٧٤٩]، والبخاري [كشف الاستار: ٢٠٤٤] بنحوه، إلا أنه قال: «إِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ دِينَكُمْ وَاحِدٌ، أَبُوكُمْ آدَمُ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ» قال الهيثمي ٨/٨٤: ورجال البخاري رجال الصحيح. وله شاهد آخر في «مسند الإمام أحمد» ٤١١/٥ بإسناد صحيح نحوه. قلت: يعني الحديث التاسع الآتي بعد هذا. لهذا حسنه أيضاً في «صحيح الترغيب والترغيب» (٢٩٦٢).

الحديث السابع



عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطة، قال: حَدَّثَنِي مِنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَخْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَخْمَرَ؛ إِلَّا بِالتَّقْوَى. أَبْلَغْتُ؟» قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

أخرجه الإمام أحمد في «المسند»^(١). قال الهيثمي في «المجمع»^(٢): رجاله رجال الصحيح.

وقال شيخ الإسلام: إسناده صحيح^(٣)، وقد رواه البيهقي في «الشَّعَب»^(٤) عن أبي نضرة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لكن قال بعده البيهقي: وهذا في الإسناد بعض من يجهل.

(١) «الفتح الرباني» (٢٢٦/٢)، [«المسند» (٤١١/٥) رقم: (٢٣٤٨٩)،

وأخرجه عبد الله بن المبارك في «المسند» (٢٣٩)].

(٢) (٢٦٦/٣).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٣٦٨/١).

(٤) (٢٨٩/٤).

فإذا كان الربُّ واحداً، والأبُّ للجميع واحداً؛ لم يبقَ لدعوى الفضل بغير تقوى الله عز وجل أيُّ اعتبار. وفي هذا الحديث: حصر الفضل في التقوى، ونفيه عن غيرها^(١).

أثر ابن عباس - رضي الله عنهما -:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لا أرى أحداً يعمل بهذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ فيقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك! فليس أحدٌ أكرم من أحدٍ إلا بتقوى الله.

أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»^(٢).

ومعنى الآية: أن الله تعالى خلق بني آدم من أصلٍ واحدٍ، فكلُّهم يرجعون إلى آدم - عليه السلام - وحواء، وقد جعلهم الله عزَّ وجلَّ «شُعُوبًا» وهو النسب البعيد للقوم، مثل عدنان سُمِّيَ شعباً وشعوباً، لأن القبائل تتشعب منه «قبائل» وهي النسب القريب^(٣). قال ابن عباس: الشعوب: القبائل العظام، والقبائل: البطون^(٤).

(١) ينظر كلام الشوكاني في شرح هذا الحديث في «الفتح الرباني» للساعاتي

(١٢/٢٢٦). [وهو في «نيل الأوطار» ١٦٤/٥].

(٢) (٢/٣٤٢-٣٤٣، رقم ٨٩٨). [وأورده الألباني في «صحيح الأدب المفرد»

(٦٨٩)، وقال: صحيح الإسناد].

(٣) ينظر «صحيح البخاري» أول كتاب المناقب (٥٢٥/٦).

(٤) «صحيح البخاري» أول كتاب المناقب (٥٢٥/٦)، وينظر: «الدر المنثور»

للسيوطي (٥٧٨/٧).

ثم بيّن تعالى الحكمة من ذلك وهي: أن يتعارف الناس حتى لا يعتزّي أحد إلى غير آبائه، ولا ينتسب إلى سوى أجداده، وعلى ذلك تترتب أحكام الورثة، فيحجب بعضهم بعضاً، وأحكام الأولياء في النكاح فيقدم بعضهم على بعض، وأحكام الوقف إذا خصّ الواقف بعض الأقارب أو بعض الطبقات دون بعض، وأحكام العاقلة في الدية على بعض العصابة دون بعض، وما يجرى مجرى ذلك، فلولا معرفة الأنساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر الوصول إليها. اهـ. من: «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب»^(١).

فهذه بعض فوائد معرفة الأنساب، وليس فيها أن التفاخر بها، وتقويم القبائل على ضوءها من التعارف الذي يحبه الله، بل هو من العصبية التي يبغضها الله سبحانه، ولهذا جعل تعالى معيار الفضل في التقوى بعد أمره بالتعارف، فالتعارف شيء، والتفاخر شيء آخر، والفرق بينهما: أن الأول محبوب إلى الله، والآخر ممقوت عنده.

وتأمل فقه الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في ذلك، فإنه لما عقد «كتاب المناقب» في «صحيحه»^(٢) بدأه فقال: باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وما يُنهي عن دَعْوَى الجاهلية.

(١) لأحمد بن عبد الله القلقشندي، والمشهور بابن أبي غُدّة (ص ١٣١٤).

(٢) (٥٢٥/٦ فتح).

قال الحافظ في «الفتح»^(١): يُشير إلى ما تضمنته هذه الآية من أن المناقب عند الله إنما هي بالتقوى؛ بأن يُعمل بطاعته، ويُكفَّ عن معصيته.

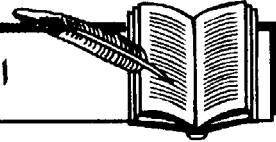
ثم بدأ البخاريُّ بذكر المناقب لقريش وغيرها من القبائل سائفاً الأدلة على أنَّ فضل هذه القبائل في تزكية رسول الله ﷺ لها، ومدحه ﷺ للصالح منها، لا أنَّ فضلها مكتسبٌ بالشعارات أو المعايير الجاهلية.

وهكذا تجدُ أهلَ العلم عامةً يَعقدون في مؤلفاتهم الكبار كتاباً للفضائل يشمل فضائل الأشخاص والقبائل والأمكنة والأزمنة، كما هو صنيع أصحاب الأمهات الست: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وغيرهم كثير.

ومن العلماء من يؤلِّف في ذلك مؤلفات مستقلة، وكل ذلك لا يمتُّ بصلة إلى العصبية الجاهلية، ولا متعلِّق فيه لأحدٍ ممن ابتلوا بها، بل هو من دين الإسلام، كما سيأتي شرحه عند حديث: «الناسُ معادنُ كمعادن الذهب والفضة»، وتحت عنوان: قاعدة في باب الفضائل.



الحديث الثامن



عن الحارث الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «... وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ» قالوا: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى؛ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ. فَأَدْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ، بِمَا سَمَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

أخرجه أحمد في «المسند»^(١).

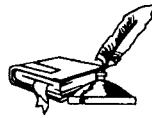
وأخرج ابنُ أبي شيبة في «المصنّف»^(٢) عن أبي صالح أنه قال: «من قال: يا آل فلان! فإنما يدعوا إلى جُثَاءِ جَهَنَّمَ».

(١) (١٣٠/٤ و ٢٠٢) [رقم: (١٧١٧٠) و (١٧٨٠٠)]. وأخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٨٦٣)، وابن خزيمة في «الصحيح» (٤٨٣) و (٩٣٠) و (١٨٩٥)، وابن حبان في «الصحيح» (٦٢٣٣)، والحاكم في «المستدرک» ١١٧/١. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الحاكم وابن القيم في «إعلام الموقعين» ٤٠٥/٢، وقال ابن كثير في «تفسيره» [البقرة: ١٢]: هذا حديث حسن. وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (١٠٢٦). والجثا: جمع: جُثوة بالضم، وهو الشيء المجموع. «النهاية» لابن الأثير (جثا).

(٢) (٣٣/١٥).

وأخرج ابنُ أبي شَيْبَةَ في «المصنَّف»^(١) عن عبد الله بن يزيد الأنصاري، قال: «تسمَّوا بأسمائكم التي سماكم الله بها: بالحنيفية، والإسلام، والإيمان».

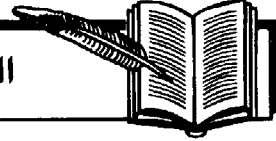
قلتُ: سَمَّانا الله عزَّ وجلَّ بالمسلمين في الكتب السابقة وفي القرآن العزيز، قال الله عز وجل: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨) [الحج: ٧٨]. قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ أي: الله تعالى هو الذي سماكم بهذا الاسم^(٢) من قبل ﴿وَفِي هَذَا﴾ في الكتب المتقدمة كالطورا والإنجيل والزبور. ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في القرآن الكريم قد سَمَّاكم أيضاً بالمسلمين.



(١) ينظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٨١/٦).

(٢) ينظر: «أضواء البيان» (٧٥٠/٥)، وابن كثير (٤٥٦/٥) ط. دار طيبة.

الحديث التاسع



عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطُّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْأَسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الجنائز^(١).

معنى الحديث: أَنَّ هذه الأربع محرمة، ومع حُرمتها فإنَّ أكثر هذه الأمة لا يتركونها مع علمهم بحُرمتها وأنها من أفعال أهل الجاهلية، وذلك وباءٌ وخيمٌ، وحوبٌ كبيرٌ.

قال المُنَاوِي في «فيض القدير»^(٢): «الفخرُ في الأحساب» أي: الشَّرَفُ بِالْآبَاءِ، والتعاضُّمُ بَعْدَ مناقبتهم ومآثرهم وفضائلهم، وذلك جهلٌ، فلا فخرَ إلا بالطاعة، ولا عِزَّ لأحدٍ إلا بالله. والأحسابُ جمع حَسَبٍ، وهو ما يعدُّه المرء من الخصال له، أو لأبائه من نحو شجاعة وفصاحة.

«الطعن في الأنساب» أي: الوقوع فيها بنحو ذمٍّ وعيبٍ.

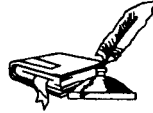
(١) (٢/٦٤٤، رقم: ٩٣٤).

(٢) (١/٤٦٢).

«الاستسقاء بالنجوم»: اعتقاد أن نزول المطر بظهور هذا النجم أو ذاك.

«النياحة»: رفع الصوت بالتذنب على الميت. اهـ مختصراً.

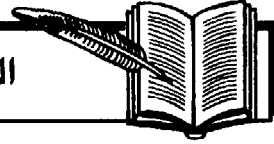
وقد أخرج البخاري في «صحيحه»^(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خِلَالٌ مِنْ خِلَالِ الْجَاهِلِيَّةِ: الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالنِّيَاحَةُ. وَنَسِي الثَّالِثَةَ، قَالَ سُفْيَانُ^(٢): وَيَقُولُونَ: إِنَّهَا الْإِسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ.



(١) كتاب مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية (١٥٦/٧ فتح) [رقم: (٣٨٥٠)].

(٢) [هو سفیان بن عُیَیْنَة، راوي هذا الأثر عن عبید الله بن أبي یزید المکی، عن ابن عباس. قال ابن حجر: وقع في رواية ابن أبي عمر عن سفیان: ونسي عبید الله الثالثة. فعین الناسي، أخرجه الإسماعيلي].

الحديث العاشر



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّنُّ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَمِيَّةِ».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان^(١).

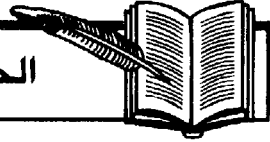
معناه كما قال القاضي عياض: أي: من أعمال أهل الكفر وعاداتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان مُحَرَّمَتَانِ فِي الشَّرْعِ^(٢). اهـ.



(١) (١/ ٨٢ رقم: ٦٧).

(٢) «المفهم شرح صحيح مسلم» (١/ ٣٢٦).

الحديث الحادي عشر



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ! وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ! فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟» ثُمَّ قَالَ: «مَا شَأْنُهُمْ؟» فَأَخْبَرَ بِكَسَعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ»^(١).

أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب، باب: ما يُنْهَى مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ^(٢). ومسلم في «صحيحه» كتاب البرِّ

(١) [قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» ٦٤٩/٨: قوله: «دعوها فإنها متنتة» أي: دعوة الجاهلية، وأبعد من قال: المراد الكسعة. ومتنتة - بضم الميم وسكون النون وكسر المثناة -: من التنت، أي أنها كلمة قبيحة خبيثة، وكذا ثبتت في بعض الروايات].

(٢) (٥٤٦/٦ فتح) [رقم: (٣٥١٨). وفي كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨) رقم: (٤٩٠٥) و(٤٩٠٧)].

والصلة^(١).

هذا أبلغ حديث في ذم العصبية الجاهلية؛ إذ الانتساب إلى الأنصار أو المهاجرين مما يمدح شرعاً، لكن لما خرج هذا الانتساب عن دائرة التعبد والاعتزاز بالانتساب لدين الله تعالى ذم ومقت، وأصبح جاهلية مرفوضة، فكيف إذا كان الانتساب إلى ما قد يباح - كالانتساب إلى قبيلة - على وجه يشبه انتساب أهل

(١) (١٩٩٨/٤)، رقم: (٢٥٨٤).

[وأورد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الافتضاء» ٢٤٠/١ هذا الحديث بهذا اللفظ، وبلغه الآخر عند مسلم (٢٥٨٤) (٦٢)، وفيه: اقتتل غلامان: غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين! ونادى الأنصاري: يا للأنصار! فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية!» قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر. قال: «فلا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً؛ إن كان ظالماً فليُنْهَ، فإنه له نصرة وإن كان مظلوماً فليُنْصِرْ» ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله: فهذان الاسمان: «المهاجرون والأنصار» اسمان شرعيان، جاء بهما الكتاب والسنة، وسماههما الله بهما، كما سمّانا: المسلمين من قبل وفي هذا. وانتساب الرجل إلى المهاجرين أو الأنصار انتساب حسن محمود؛ عند الله وعند رسوله، ليس من المباح الذي يقصد به التعريف فقط؛ كالانتساب إلى القبائل والأمصار، ولا من المكروه أو المحرم؛ كالانتساب إلى ما يُفْضَى إلى بدعة أو معصية أخرى. ثم - مع هذا - لما دعا كل واحد منهما طائفة منتصرة بها؛ أنكر النبي ﷺ ذلك، وسمّاهما: دعوى الجاهلية، حتى قيل له: إن الداعي بها إنما هما غلامان، لم يصدر ذلك من الجماعة، فأمر بمنع الظالم، وإعانة المظلوم ليبيّن النبي ﷺ: أن المحذور إنما هو تعصب الرجل لطائفته مطلقاً؛ ففعل أهل الجاهلية، فأما نصرها بالحق من غير عدوان: فحسن واجب، أو مستحب].

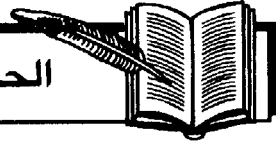
الجاهلية؟ لا ريب أنه أكثر ذمًا، وأشدُّ مقتًا.

قوله «رجل لعاب» أي بطال، وهو: جهجاه بن قيس الغفاري.

قوله: «فكسع» أي: ضربه على دُبُرِهِ.



الحديث الثاني عشر



عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أُنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ يَمْلُؤُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فَضْلٌ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِالَّذِينَ أَوْ عَمِلَ صَالِحٌ، حَسَبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بِخِيَلٍ جَبَانًا».

رواه أحمد في «المسند»^(١).

(١) (١٤٥/٤ و ١٥٨)، [قلت: أخرجه أحمد (١٧٣١٣) عن قتيبة بن سعيد، وهو (١٧٤٤٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٧٧) عن يحيى بن إسحاق، والطبري في «التفسير» [الحجرات: ١٣]، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٤٥٩) من طريق: عبد الله بن وهب، وهو في «جامعه» (٤١)، والطبراني في «المعجم الكبير» ١/ (٨١٤) من طريق سعيد بن أبي مريم، أربعتهم: عن عبد الله بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد، عن علي بن رباح، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، به.

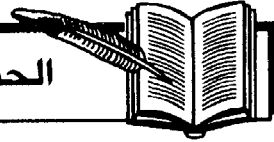
وهذا إسنادٌ جيّدٌ، رجاله ثقات، ورواية: ابن وهب وقتيبة عن ابن لهيعة صالحة. وقال الألباني في «الصحيحة» (١٠٣٨): هذا سند صحيح على شرط مسلم إلا ابن لهيعة، وهو صحيح الحديث إذا روى عنه أحد العبادلة، وهذا من رواية عبد الله بن وهب عنه فهو صحيح، وبيان ذلك في ترجمته من «التهذيب». ولفظ ابن جرير في إحدى روايته: «النَّاسُ لآدَمَ وَحَوَاءَ، كَطَفُّ الصَّاعِ لَمْ يَمْلُؤُوهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْأَلُكُمْ عَنْ أَحْسَابِكُمْ، وَلَا عَنْ أُنْسَابِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾».

قوله: «طف الصاع» أي: قريب بعضكم من بعض.



= وقال السُّنْدِيُّ في «حاشية المسند» ٥٤٩/٢٨: قوله: «طف الصاع» هو ما قُرِبَ من ملئه. أي: قريب بعضكم من بعض، وكلكم في الانتساب إلى أبٍ واحدٍ بمنزلةٍ واحدةٍ في النقص والتقصير عن غاية التمام، وشبههم في نقصانهم بالمكيل الذي لم يبلغ أن يملأ المكيال، وهو بالرفع خبرٌ بعد خبرٍ، وقيل: بدلٌ أو خبرٌ محذوفٌ، أو بالتَّصْبِ حال مؤكدة].

الحديث الثالث عشر



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٍ تَقِيٍّ، وَفَاجِرٍ شَقِيٍّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدْعَنَّ رَجَالٌ فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ؛ إِنَّمَا هُمْ فَخَمٌ مِنْ فَخَمٍ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِغَلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا التَّنِينَ».

أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب^(١).

والترمذي في آخر «سننه»^(٢)، وصححه شيخ الإسلام في «الاقتضاء»^(٣).

قوله: «عُيَّةَ الجاهلية»: نخوتها.

والعُيَّة: الكبر والفخر والنخوة^(٤).

(١) (٣٣٩/٥ - ٣٤٠). [رقم: (٥١١٦)].

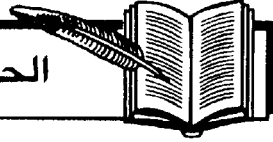
(٢) (٧٣٤/٥، ٧٣٥). [رقم: (٣٩٥٥)].

(٣) (٢٢٠/١).

(٤) ينظر: «تاج العروس» (٣/٣٠٣).

= [وقال الخطّابي في «معالم السنن» ١٣٧/٢: العيبة: الكبر والنخوة، وأصله من العباء، وهو الثقل. يقال: عُبة وعيبة، بضم العين وكسرهما. وقوله: «مؤمن تقي، وفاجر شقي» معناه: أنَّ النَّاسَ رجلان: مؤمن تقيّ، وهو الخيرُ الفاضل؛ وإن لم يكن حسيباً في قومه. وفاجر شقيّ، فهو الدنيء؛ وإن كان في أهله شريفاً رفيعاً].

الحديث الرابع عشر



عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ».

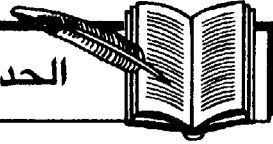
أخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الأدب، باب في العصبية^(١).

إسناده ضعيف، ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «صحيح مسلم».



(١) (٣٨٩/٥)، [برقم: (٥١٢١)]. وقال الألباني في «غاية المرام» (٣٠٤): ضعيف الإسناد، غير أنَّ الحديث صحيح المعنى، فقد أخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة.. وذكر (الحديث الثاني) المتقدم، وهو الذي أشار إليه المؤلف، رحم الله الجميع.

الحديث الخامس عشر



عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَاضَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾».

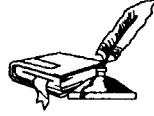
أخرجه الترمذي في «سُنَّته»: كتاب تفسير القرآن^(١). وقال: غريب. اهـ

قلت: تقدّم معناه في الحديث الثالث عشر.

أثر آخر لابن عباس - رضي الله عنهما -:

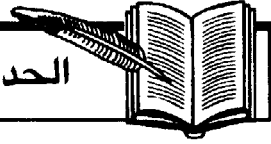
عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: ما تَعُدُّون

الكَرَمَ؟ قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ الْكَرَمَ: فَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ. مَا تَعُدُّونَ الْحَسَبَ؟ أَفْضَلُكُمْ حَسَباً أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً.
أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ»^(١).



(١) (٣٤٣/٢) رقم: (٨٩٩). [وقال الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٩٠): صحيح الإسناد].

الحديث السادس عشر



عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انتهيتُ إلى النبي ﷺ في قُبَّةٍ من آدم، فقال: «مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ: فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الَّذِي رُدِّيَ فَهُوَ يُنْزَعُ بِذَنَبِهِ».

أخرجه أبو داود في «سُنَنِهِ» كتاب الأدب، باب في العvisية^(١). وإسناده صحيح.

قوله: «رُدِّيَ» تردَّى وسقط في البئر «فهو» أي: البعير. «يُنْزَعُ»: يعالج ويحاول أن يخرج عنها.

والمعنى: أنَّ مَنْ نصر قومه على غير الحق فقد أوقع نفسه في الهلكة بتلك التُّصرة الباطلة، حيث أراد الرُّفعةً بنصرة قومه، فوقع في حضيضٍ بِئْرٍ الإثم، وهلك كالبعير، فلا تنفعه تلك التُّصرة؛ كما لا ينفع البعير نزعه عن البئر بِذَنَبِهِ.

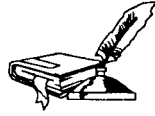
(١) (٤٣١/٥)، [برقم: (٥١١٧)]. وأخرجه أحمد في «المسند» ٣٩٣/١

(٣٧٢٦) و٤٠١/١ (٣٨٠١). وقال ابن مفلح في «الآداب الشرعية»

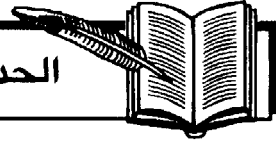
٩٦/١: حديث حسن. وصحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»

[(١٣٨٣)].

وقيل: شبه النبي ﷺ، القوم ببيعير هالك، لأن من كان على غير حق فهو هالك، وشبه ناصرهم بذنب هذا البعير، فكما أن نزعه بذنبه لا يخلصه من الهلكة؛ كذلك هذا الناصر لا يخلصهم عن بئر الهلاك التي وقعوا فيها. اهـ. من «مرقاة المفاتيح» للقاري^(١).



الحديث السابع عشر



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :
«... وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الذُّكر^(١).

قوله: «من بطأ به عمله» أي من أخره عمله، وجعله بطيئاً عن بلوغ درجة السَّعادة، لكون عمله سيئاً، أو كونه فرطاً في العمل الصالح. «لم يُسرّع به نسبه» أي: لم يقدمه نسبه، إذ لا يحصل التقرب إلى الله تعالى بالنسب؛ بل بالأعمال الصالحة^(٢).

ولهذا لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ قام رسول الله ﷺ فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! - أو كلمة نحوها - اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً. يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً. وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.

(١) (٤/٢٠٧٤، رقم: ٢٦٩٩).

(٢) ينظر: «مرقاة المفاتيح» للقراري (١/٤٥٧، ٤٥٨).

يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتَ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً».

أخرجه البخاري في «الصحيح»^(١).

فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يُنْجِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا
الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.



(١) [برقم: (٢٥٧٣) و(٣٥٢٧) و(٤٧٧١)].

الحديث الثامن عشر



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَوْمَ عَرَفَةَ؛ فَقَالَ: «.. أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الحج^(١).

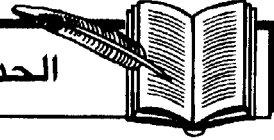
قال شيخ الإسلام في «الاعتناء»^(٢): وهذا يدخل فيه ما كانوا عليه من العادات والعبادات، مثل دعواهم يا لفلان، ويا لفلان! ومثل أعيادهم، وغير ذلك من أمورهم. اهـ.



(١) (٨٨٦/٢) رقم: (١٢١٨).

(٢) (٣٠٥/١).

الحديث التاسع عشر



عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَزْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صَلَةَ الرَّجْمِ: مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَاءٌ فِي الْأَثَرِ».

أخرجه الإمام أحمد في «المسند»^(١)، والترمذي في «سننه» كتاب البرِّ والصَّلة، باب: ما جاء في تعلُّم النَّسَب^(٢).

قال الترمذي: غريب من هذا الوجه، ومعنى قوله: «منسأة» في الأثر» يعني زيادة في العمر. اهـ.

قلت إسناده جيّد، وقد صحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي^(٣).

وأخرج الطيالسي في «مسنده»^(٤) عن ابن عباس رضي الله

(١) (٣٧٤/٢). [رقم: (٨٨٦٨)].

(٢) (٣٥١/٤). [رقم: (١٩٧٩)].

(٣) «المستدرک» (١٦١/٤) وينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني رقم: (٢٧٦).

(٤) (٢٧٥٧).

عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «اعْرِفُوا أَنْسَابَكُمْ، تَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ».

صحَّحه الحاكم وأقرَّه الذهبي^(١)، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد»^(٢) موقوفاً على ابن عباس، بلفظ: اخْفَظُوا أَنْسَابَكُمْ، تَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»^(٣) - أيضاً - عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمَنبَرِ: تَعَلَّمُوا أَنْسَابَكُمْ ثُمَّ صَلُّوا أَرْحَامَكُمْ.

دلَّت الأحاديث والآثار هذه على أَنَّ تعلم الأنساب محمودٌ إذا كان تعلُّمها للقيام بطاعة الله المتعلقة بها، من صلة رحم وقسمة ميراث، وتحمل عاقلة، ونحو ذلك.

أما إن كان تعلُّمها لَقُصْدِ الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ ونحو ذلك مِمَّا كان عليه أهل الجاهلية، فذلك مذمومٌ مرفوضٌ، ولهذا نرى أَنَّ التعليلَ الواردَ هاهنا: كون التَّعلم للأنساب عوناً على صلة الأرحام، والإحسانِ إلى الأقارب.

وقد علَّق الشارع بالأنساب أحكاماً كثيرة، ولهذا قال ابنُ

(١) «المستدرک» (١٦١/٤). وينظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٢٧٧).

(٢) (١٥٦/١) «الشرح».

(٣) (١٥٤/١). [وقال الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٣): حسن الإسناد].

حزم في كتاب «النسب»^(١) له: «إنَّ في علم النَّسب ما هو فرض على كلِّ أحدٍ، وما هو فرضٌ على الكفاية، وما هو مستحبٌّ. قال: فمن ذلك أن يعلم أنَّ محمداً رسولَ الله ﷺ هو ابنُ عبد الله الهاشميِّ، وأنَّ يعلم أنَّ الخليفة من قريش، وأنَّ يعرفَ مَنْ يلقاه بنسبٍ في رحمٍ محرَّمةٍ؛ ليجتنب تزويج ما يحرم عليه منهم، وأنَّ يعرفَ من يتصل به ممَّن يرثه أو يجب عليه برُّه من صلةٍ أو نفقةٍ أو معاونةٍ، وأنَّ يعرفَ أمَّهات المؤمنين، وأنَّ نكاحهنَّ حرامٌّ على المؤمنين، وأنَّ يعرفَ الصحابةَ وأنَّ حبَّهم مطلوبٌ، وأنَّ يعرفَ الأنصارَ ليُحسنَ إليهم؛ لثبوت الوصية بذلك، لأنَّ حبَّهم إيمانٌ، وبغضهم نفاقٌ». اهـ.

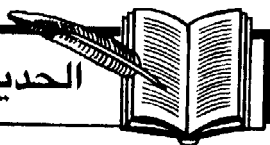
وكذا معرفةُ آل بيت النبي ﷺ المؤمنين منهم، والمستقيمين على الحقِّ؛ ليقام بحقِّهم إنفاذاً لوصية رسول الله ﷺ بهم، ولئلاَّ يُعطوا من الزَّكاة.



(١) نقله عنه الحافظُ في «الفتح» كتاب المناقب (٥٢٧/٦).

[قلتُ: وكلام أبي محمد ابن حزم رحمه الله ضمن بحثٍ قيِّمٍ في صدر كتابه: «جمهرة أنساب العرب» (ص: ١-٦)].

الحديث المتمم للعشرين



عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُفْرٌ بِاللَّهِ تَبَرُّؤٌ مِنْ نَسَبٍ وَإِنْ دَقَّ، أَوْ ادَّعَاءٌ إِلَى نَسَبٍ لَا يُعْرِفُ».

أخرجه أحمد في «المسند»^(١)، وابن ماجه في «سننه» كتاب الفرائض باب: من أنكر ولده^(٢).

ولفظ ابن ماجه: «كُفْرٌ بِأَمْرٍ أَدَّعَاءُ نَسَبٍ لَا يُعْرِفُهُ، أَوْ جَعْدُهُ؛ وَإِنْ دَقَّ».

قال في «الزوائد»: إسناده صحيح. وحسنه السيوطي، والألباني في «صحيح الجامع»^(٣).

قوله: «كُفْرٌ» أي: ليس بالله العظيم، وليس كفراً ينقل عن الملة، وفي تسميته كفراً دليل على أنه من الكبائر. والمعنى: لا يحل للمسلم أن يتبرأ من نسبه ولو كان هذا النسب حقيراً، ومثله من ادعى نسباً لا يعرف أي لا يتصل به فمن فعل ذلك فقد

(١) (٢١٥/٢)، [رقم: (٧٠١٩)].

(٢) (٩١٦/٢)، [رقم: (٢٧٤٤)].

(٣) (٨٢٧/٢)، [رقم: (٤٤٨٦)].

كفر بنعمة الله عزَّ وجلَّ عليه، واعترض على قضاء الله وحكمته، بل كذب على الله عز وجل كأنه يقول: خلقتني الله من ماء فلان ولم يخلقني من ماء فلان! والواقع خلافه^(١).

وقد تتابعت الأحاديث في «الصحيحين» وغيرهما في إلحاق الوعيد الشديد بمن ادَّعى إلى غير أبيه، ففي بعض الأحاديث: لعنه، وفي بعضها: تحريم الجنة عليه.

ففي «الصحيح»^(٢) عن أبي ذر رضي الله عنه: أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعى لِغَيْرِ أَبِيهِ، وَهُوَ يَعْلَمُهُ؛ إِلَّا كَفَرَ. وَمَنْ ادَّعى قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

قال النووي رحمه الله تعالى: في هذا الحديث تحريم دَعْوَى ما ليس له في كلِّ شيء؛ سواء تَعَلَّقَ به حقٌّ لغيره، أم لا^(٣).

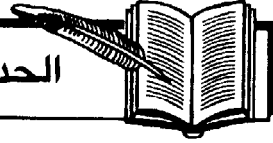


(١) ينظر «الفتح الرباني» للبنا (٤٢/١٧).

(٢) البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (٦١).

(٣) «شرح مسلم» (٥٠/٢).

الحديث الحادي والعشرون



عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله! من أكرم الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فَيُؤَسِّفُ نَبِيَّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ؛ إِذَا فَقَّهُوا».

أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب المناقب^(١)، ومسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل^(٢).

قال العلماء^(٣) لما سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؛ أُخْبِرَ بِأَكْمَلِ الْكَرَمِ وَأَعَمِّهِ. فقال: «أَتْقَاهُمْ» لله، وأصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متّقياً كان كثير الخير، وكثير الفائدة في الدنيا، وصاحب الدرجات العُلا في الآخرة. فلما قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «يوسف» الذي جمع خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما. فلما قالوا: ليس عن هذا نسألك، فهم النبي ﷺ، عنهم أن مرادهم قبائل

(١) (٥٢٥/٦ فتح) [رقم: (٣٤٩٠)].

(٢) (١٨٤٦/٤) رقم (٢٣٧٨).

(٣) نقلاً عن النووي في «شرح مسلم» (١٣٥/١٥).

العرب، فقال: «خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا». ومعناه: أنَّ أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا؛ فهم خيارُ الناس.

قال القاضي عياض: وقد تضمَّن الحديث في الأجوبة الثلاثة أنَّ الكرم كله عمومُه وخصوصُه، ومجمله ومعينه؛ إنَّما هو التقوى والنبوة، والإعراق فيها، والإسلام مع الفقه، فإذا تمَّ ذلك أو ما حصل منه مع شرف الأب المعهود عند النَّاس؛ فقد كان شرف الشريف، وكرم الكريم^(١).

قلتُ: الحديث فيه تنبيهٌ على أنَّ في الجاهليين خياراً باعتبار الأمور الدنيوية، كإكرام الضيف ونحوه. ومن هنا قال الشوكاني - رحمه الله تعالى -: فلا شكَّ أنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ لشرافة الأنساب وكرم النَّجار مدخلاً في كون أهلها خياراً، وخيارُ القوم أفضلهم، وإن لم يكنْ لذلك مدخلٌ باعتبار أمر الدين والجزاء الآخروي^(٢). اهـ.

قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة»^(٣) على هذا الحديث: بيِّن لهم أولاً: أنَّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وإن لم يكن ابن نبيٍّ ولا أبا نبيٍّ، فإبراهيم عليه السلام، أكرم على الله من يوسف، وإن كان أبوه آزر وهذا أبوه يعقوب، وكذلك نوح أكرم على الله من إسرائيل، وإن كان هذا أولاده أنبياء، وهذا أولاده ليسوا بأنبياء. فلمَّا ذكروا أنه ليس مقصودهم إلا الأنساب، قال لهم: فأكرم

(١) «شرح القاضي عياض على مسلم» (٣٦٢/٧).

(٢) نقلاً عن «الفتح الرباني» للبنا (٢٢٦/١٢).

(٣) (٢١٥-٢١٦).

أهل الأنساب من انتسب إلى الأنبياء، وليس في وَلَدِ آدَمَ مثل يوسف، فإنه نبيٌّ، ابنُ نبيٍّ، ابنِ نبيٍّ. فلمَّا أشاروا إلى أنه ليس مقصودهم إلا ما يتعلَّق بهم، قال: «أفَعَن معادن العرب تسألوني؟ النَّاسُ معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»؛ بيَّن أن الأنساب كالمعادن، فإنَّ الرجل يتولَّد منه كما يتولَّد من المعدن الذهب والفضة، ولا ريب أنَّ الأرضَ التي تُنبتُ الذَّهَبَ أفضل من الأرض التي تُنبت الفضة، فهكذا من عُرف أنَّه يلد الأفاضل، كان أولاده أفضل ممن عُرف أنه يلد المفضول. لكن هذا سببٌ ومظنَّةٌ، وليس هو لازماً، فربَّما تعطلَّت أرض الذهب، وربما قلَّ نبتُها، فحينئذٍ تكون أرض الفضة أحبَّ إلى الإنسان من أرض معطَّلة، والفضة الكثيرة أحب إليه من ذهبٍ قليل لا يماثلها في القدر. فلهذا كانت أهل الأنساب الفاضلة يُظنُّ بهم الخير، ويُكرَّمون لأجل ذلك، فإذا تحقَّق من أحدهم خلاف ذلك كانت الحقيقةُ مقدَّمة على المظنَّة، وأما ما عند الله فلا يَثْبُتُ على المظانِّ ولا على الدلائل، وإنما يَثْبُتُ على ما يعلمه هو من الأعمال الصالحة، فلا يحتاج إلى دليل ولا يجتزئ بالمظنة. فلهذا كان أكرم الخلق عنده أتقاها، فإذا قُدِّرَ تماثل اثنين عنده في التقوى تماثلاً في الدرجة؛ وإن كان أبو أحدهما أو ابنه أفضل من أبي الآخر أو ابنه، لكنَّ إن حصل له بسبب نسبهِ زيادة التقوى؛ كان أفضل لزيادة تقواه. ولهذا حصل لأزواج النبي ﷺ، إِذْ قَتَنَ اللهُ ورسوله وعملن صالحاً أجران لا لمجرّد المصاهرة؛ بل لكمال الطاعة. كما أنَّهن لو أتين بفاحشةٍ مبيَّنة لضوعف لهن العذابُ ضعفين؛ لقبح المعصية، فإنَّ ذا الشرف إذا ألزَمَ نفسه التقوى؛ كان تقواه أكمل من تقوى

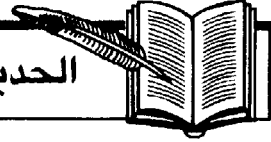
غيره، كما أَنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَدَلَ كَانَ عَدْلُهُ أَعْظَمَ مِمَّنْ عَدَلَ فِي أَهْلِهِ. ولهذا لم يُثْنِ اللهُ عَلَى أَحَدٍ فِي الْقُرْآنِ بِنَسَبِهِ أَصْلًا: لَا عَلَى وَلَدِ نَبِيٍّ، وَلَا عَلَى أَبِي نَبِيٍّ، وَإِنَّمَا أَثْنَى عَلَى النَّاسِ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ. وَإِذَا ذَكَرَ صِنْفًا وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ؛ فَلَمَّا فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ؛ لَا لِمَجْرَدِ النَّسَبِ. ولما ذكر الأنبياء - ذَكَرَهُمْ فِي الْأَنْعَامِ - وَهُمْ ثَمَانِيَةٌ عَشَرَ قَالَ: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْتَهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٨٧) [الأنعام: ٨٧]؛ فبهذا حصلت الفضيلةُ بِاجْتِبَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَهْدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ لَا بِنَفْسِ الْقَرَابَةِ. وقد يوجب النَّسَبُ حَقُوقًا، وَيُوجِبُ لِأَجْلِهِ حَقُوقًا، وَيُعَلِّقُ فِيهِ أَحْكَامًا مِنَ الْإِيجَابِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْإِبَاحَةِ، لَكِنِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ عَلَى الْأَعْمَالِ؛ لَا عَلَى الْأَنْسَابِ. ولما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) [آل عمران: ٣٣]، وَقَالَ: ﴿أَمْرٌ يُحْسَدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤) [النساء: ٥٤]؛ كَانَ هَذَا مَدْحًا لِهَذَا الْمَعْدَنِ الشَّرِيفِ، لَمَّا فِيهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ مِنْهُمْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْمَدْحِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٦٦) [الحديد: ٦٦]، ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (١١٣) [الصافات: ١١٣]، وَفِي الْقُرْآنِ الثَّنَاءُ وَالْمَدْحُ لِلصَّحَابَةِ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فِي غَيْرِ آيَةٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقُدُّوسِ الْأَمْحَرِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يُحَسِّنُونَ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ

الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا
وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى ﴿[الحديد: ١٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْذَبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا﴾ ﴿٨﴾ [الفتح: ١٨]. وهكذا في القرآن الشناء
على المؤمنين من الأمة، أولها وآخرها؛ على المتقين والمحسين
والمقسطين والصالحين، وأمثال هذه الأنواع. وأما النسب ففي
القرآن إثبات حقٍّ لذوي القربى، كما ذكروا هم في آية الخمس
والفيء. وفي القرآن أمرٌ لهم بما يُذهب عنهم الرجس ويُطهِّرهم
تطهيراً. وفي القرآن الأمرُ بالصلاة على النبي ﷺ، وقد فُسِّرَ ذلك
بأنَّ يُصَلَّى عليه وعلى آله. وفي القرآن الأمرُ بمحبة الله ومحبة
رسوله، ومحبة أهله من تمام محبته ﷺ. وفي القرآن أنَّ أزواجه
أمهات المؤمنين. وليس في القرآن مدحٌ أحدٍ لمجرد كونه من
ذوي القربى وأهل البيت، ولا الشناء عليهم بذلك، ولا ذكر
استحقاقه الفضيلة عند الله بذلك، ولا تفضيله على من يساويه في
التقوى بذلك. وإن كان قد ذَكَرَ ما ذَكَرَهُ من اصطفاء آل إبراهيم،
واصطفاء بني إسرائيل؛ فذاك أمرٌ ماضٍ، فأخبرنا به في جعله
عبرةً لنا، فبيِّنَ مع ذلك أنَّ الجزاء والمدح بالأعمال. ولهذا ذَكَرَ
ما ذَكَرَهُ من اصطفاء بني إسرائيل، وذكر ما ذكره من كُفْرٍ من كُفَرٍ
منهم، وذنوبهم، وعقوبتهم؛ فذكر فيهم التَّوْعِينَ الثَّوَابِ والعقاب.
وهذا من تمام تحقيق أنَّ النسبَ الشريف قد يقترون به المدحُ
تارة؛ إن كان صاحبه من أهل الإيمان والتقوى، وإلا فإنَّ ذمَّ
صاحبه أكثر، كما كان الذمُّ لمن دُمَّ من بني إسرائيل وذرية
إبراهيم، وكذلك المصاهرة؛ قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ
كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

صَلَّيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ
مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ
قَالَتْ رَبِّ أَنِّي لِإِي عِنْدَكَ بِئْسَ فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْ
مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ [التحریم: ١٠ - ١١]. وإذا تبَيَّنَ هذا فيقال:
إذا كان الرجل أعجميًا، والآخر من العرب، فنحن - وإن كنا
نقول مجملًا: إِنَّ الْعَرَبَ أَفْضَلُ جَمْلَةً - فقد قال النبي ﷺ - فيما
رواه أبو داود وغيره: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي
على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض؛ إلا
بالتقوى، والناس من آدم، وآدم من تراب». وقال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبَيْةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، النَّاسِ رَجُلَانِ: مُؤْمِنٌ
تَقِيٌّ، فَاجِرٌ شَقِيٌّ». ولذلك إذا كان الرجل من أفناء العرب،
وآخر من قريش؛ فهما عند الله بحسب تقواهما: إِنْ تَمَائَلَا فِيهَا؛
تَمَائَلَا فِي الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ تَفَاضَلَا فِيهَا تَفَاضَلَا فِي
الدَّرَجَةِ. وكذلك إذا كان رجل من بني هاشم، ورجل من أفناء
قريش، أو العرب، أو العجم؛ فأفضلُهما عند الله أتقاهُما، فَإِنْ
تَمَائَلَا فِي التَّقْوَى؛ تَمَائَلَا فِي الدَّرَجَةِ، وَلَا يَفْضَلُ أَحَدُهُمَا
عِنْدَ اللَّهِ لَا بِأَبِيهِ، وَلَا بِإِخْوَتِهِ، وَلَا بِزَوْجَتِهِ، وَلَا بِعَمِّهِ، وَلَا بِأَخِيهِ.
اهـ كلام ابن تيمية رحمه الله.



الحديث الثاني والعشرون



عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاضْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاضْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل^(١).

قاعدة في الفضائل:

اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى اعْتِقَادِ أَنَّ جَنْسَ الْعَرَبِ أَفْضَلُ مِنْ جَنْسِ الْعَجَمِ، وَأَنَّ قُرَيْشاً أَفْضَلُ الْعَرَبِ، وَأَنَّ بَنِي هَاشِمٍ أَفْضَلُ قُرَيْشٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ بَنِي هَاشِمٍ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ نَفْساً وَأَفْضَلُهُمْ نَسَباً^(٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «اقتضاء الصراط المستقيم»^(٣): وليس فضلُ العرب، ثم قریش، ثم بني هاشم؛

(١) (٤/١٧٨٢ رقم: ٢٢٧٦).

(٢) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» ١/٣٧٤.

(٣) (١/٣٧٥ - ٤٠٥).

لمجرد كون النبي ﷺ، منهم، وإن كان هذا من الفضل. بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ، أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور.

ثم ذكر شيخ الإسلام الأدلة على ذلك فقال: إِنَّ اللَّهَ خَصَّ العربَ ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثُمَّ خَصَّ قريشاً على سائر العرب بما جعل فيهم من خلافة النبوة، وغير ذلك من الخصائص، ثم خَصَّ بني هاشم بتحريم الصدقة، واستحقاق قِسْطٍ من الفيء، إلى غير ذلك من الخصائص. فأعطى الله - سبحانه - كلَّ درجة من الفضل بحسبها والله عليم حكيم: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٧٥) [الحج: ٧٥]، ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِیُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤) [الأنعام: ١٢٤].

روى البزار عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أنه قال: نُفَضِّلُكُمْ يا معشر العرب لتفضيل رسول الله ﷺ إِيَّاكُمْ: لا ننكح نساءكم، ولا نؤمكم في الصلاة. وإسناده جيّد. وسبب هذا الفضل - والله أعلم -: ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم.. وذلك أَنَّ الفضل إمَّا بالعلم النَّافع، وإمَّا بالعمل الصالح. والعلم له مبدأ: وهو قوّة العقل الذي هو الفهم والحفظ. وتمام: وهو قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة. والعرب هم أفهم من غيرهم وأحفظ، وأقدر على البيان والعبارة. ولسانهم أتمُّ الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني؛ جمعاً وفرقاً، يجمع المعاني الكثيرة في اللفظ القليل إذا شاء المتكلّم

الجمع، ثم يميّز بين كل شيئين مشتبهين بلفظ آخر مميّز مختصر، إلى غير ذلك من خصائص اللسان العربي التي لا يُستراب فيها. وأما العمل: فإنّ مبناه على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النّفس، وغرائزهم أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب للسّخاء والجُلُم والشّجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، لكن كانوا قبل الإسلام طبيعةً قابلةً للخير، معطّلةً عن فعله، ليس عندهم علمٌ منزلٌ من السماء، ولا شريعةٌ موروثةٌ عن نبيٍّ، ولا هم - أيضاً - مشغولين ببعض العلوم العقلية المحضة؛ كالطبّ والحساب ونحوها، إنّما علمهم ما سمحت به قرائنهم: من الشعر والخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والتّجوم، أو من الحروب. فلمّا بعث الله محمداً ﷺ بالهدى - الذي ما جعل الله في الأرض، ولا يجعلُ أمراً؛ أجلّ منه، وأعظم قدراً - وتلقّوه عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم من تلك العادات الجاهلية، والظلمات الكفرية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطريتها، فلما تلقّوا عنه ذلك الهدى العظيم؛ زالت تلك الرّيون^(١) عن قلوبهم، واستنارت بهدي الله الذي أنزل على عبده ورسوله، فأخذوا هذا الهدى العظيم بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم: الكمال بالقوّة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم... إلى أن قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى -: إنّ الذي يجبُ على المسلم إذا نظر في الفضائل، أو تكلم فيها: أن يسلك سبيل العاقل

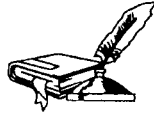
(١) الريون: جمع رين، وهو الطبع والدنس. «مختار الصحاح» (رين).

الدين، الذي غرضه أن يعرف الخير، ويتحرّاه جهده، وليس غرضه الفخر على أحد، ولا الغمض^(١) من أحد، فقد روى مسلم في «صحيحه»^(٢) عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ أَوْجِي إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». فنهى الله سبحانه على لسان رسوله عن نوعي الاستطالة على الخلق، وهي: الفخر والبغي؛ لأنّ المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغي. فلا يحلّ لا هذا ولا هذا. فإن كان الرجل من الطائفة الفاضلة - مثل أن يذكر فضل بني هاشم أو قريش أو العرب أو بعضهم - فلا يكن حظّه استشعار فضل نفسه، والتّظر إلى ذلك، فإنّه مخطئ في هذا؛ لأنّ فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص - كما قدّمناه - فربّ حبشيّ أفضل عند الله من جمهور قريش. ثم هذا النظر يوجب نقصه وخروجه عن الفضل، فضلاً عن أن يستعلي بهذا ويستطيل. وإذا كان من الطائفة الأخرى - مثل العجم أو غير قريش أو غير بني هاشم -؛ فليعلم أنّ تصديقه لرسول الله ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، ومحبة ما أحبه الله، والتشبه بمن فضّل الله، والقيام بالدين الحقّ الذي بعث به محمداً؛ يوجب له أن يكون أفضل من جمهور الطائفة المفضّلة، وهذا هو الفضل الحقيقي. وانظر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حين وضع

(١) [الغمض أو الغمض - على اختلاف النسخ - معناهما واحد، فالغمض هو الاستصغار، يقال: غمضه: إذا استصغره ولم يره شيئاً. والغمض: هو الازدراء].

(٢) [برقم: (٢٨٦٥)].

الديوان، وقالوا له: يبدأ أمير المؤمنين بنفسه! فقال: لا، ولكن
ضعوا عمر حيث وضعه الله^(١). فبدأ بأهل بيت رسول الله ﷺ
ثم من يليهم، حتى جاءت نوبته في بني عدي؛ وهم متأخرون
عن أكثر بطون قريش، ثم هذا الأتباع للحق ونحوه؛ قدّمه على
عامّة بني هاشم، فضلاً عن غيرهم من قريش. اهـ.



(١) [انظر: «طبقات ابن سعد» ٢٩٤/٣، و«تاريخ الطبري» ٥٧١/٢].



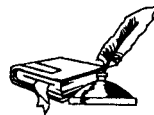
تلخص مما قدمته في هذه الرسالة :

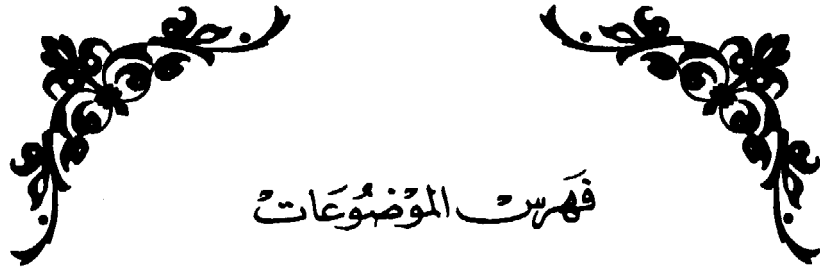
- أن التفاخر بالأنساب من أمر الجاهلية، فخالفهم النبي ﷺ في ذلك وقضى على جميع صور العصبية الجاهلية، حتى تكون النفس منقاداً لله تعالى، لا تثيرها أي عصبية سوى عصبية الإسلام والحمية لدين الله عز وجل.
- وأنه لا يجوز احتقار أنساب الناس، أو الطعن فيها.
- وأن انتساب بعض الناس إلى قبيلة ليس منها؛ كفر بالله عز وجل، وإن كان لا يخرج من ملة الإسلام، بيد أنه كبيرة من كبائر الذنوب، ثم هو ضَعْفٌ وَخَوْرٌ في هذا المنتسب، وقلة تسليم لأمر الله عز وجل وقدره وحكمته.
- وأن الإسلام لم يقض بإهدار القبليّة، ولا نهى عن الانتساب إلى القبيلة والحرص على ضبط أصولها وحماية كياناتها. بل حثّ على تعلّم الأنساب وحفظها، وفضل بعض القبائل على بعض، فجاء في الشرع بيان فضل قريش، وهكذا ذكر فضل غيرها من القبائل العربيّة، إنّما جاء الإسلام بإهدار العصبية الجاهلية لهذه القبائل، كأن

تُجعل هي عنوان الفضل، أو ينتصر أفرادها للشخص منهم بالفعل أو بالقول بعيداً عن معايير الشريعة الإسلامية، ونحو ذلك مما كان عليه أهل الجاهلية من تقديم عادات القبيلة على كل شيء، فهي حاكمة لا يحكم عليها.

● كما أنَّ ذكر فضائل القبائل الواردة في الشرع يجب أن يعتبر فيه التسليم المطلق للشارع، وأن يفهم كما أراد الشرع الشريف لا أن يؤخذ على جهة التفاخر والتعظيم وازدراء الآخرين، فمن فعل ذلك فقد خرج عن مقصد الشرع على حال الجاهلية الأولى، وكان كمن استدل بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ على المنع من الصلاة! جعلنا الله في عافية من ذلك، وأخذ بأيدينا إلى تحكيم شرع الله عز وجل في كل أمورنا، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





الموضوع	الصفحة
كلمة بين يدي الكتاب: القومية في ميزان الحق والهدى، بقلم الشيخ عبدالحق التركماني	٧
تقديم الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان	٤١
المقدمة	٤٣
(١) «مَنْ تَعَزَّى بِعِزِّ الْجَاهِلِيَّةِ...»	٤٧
(٢) «مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةِ عُمَيَّةٍ...»	٥١
(٣) «مَنْ قَتَلَ تَحْتَ رَايَةِ عُمَيَّةٍ...»	٥٣
(٤) «فَهَلَّا قُلْتُ: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا الْعَلَامُ الْأَنْصَارِيُّ!»	٥٤
(٥) «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»	٥٦
(٦) «انْظُرْ فَإِنَّكَ لَيْسَ بِخَيْرٍ مِنْ أَحْمَرَ...»	٥٨
(٧) «أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ»	٥٩
(٨) «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُنَاءِ جَهَنَّمَ»	٦٣
(٩) «أَزْبَعْ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ...»	٦٥
(١٠) «اِثْنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفَرٌ...»	٦٧
(١١) «دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ»	٦٨
(١٢) «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسَبَابٍ عَلَى أَحَدٍ...»	٧١
(١٣) «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ...»	٧٣

- (١٤) «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصِيَّةٍ...» ٧٥
- (١٥) «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَقَبَ عَنْكُمُ غُبَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ» ٧٦
- (١٦) «مَنْ نَصَرَ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ: فَهُوَ كَالْبَعِيرِ...» ٧٨
- (١٧) «مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» ٨٠
- (١٨) «... أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ...» ٨٢
- (١٩) «تَعَلَّمُوا مِنْ أُنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ...» ٨٣
- (٢٠) «كُفِّرَ بِاللَّهِ تَبَرُّؤٌ مِنْ نَسَبٍ...» ٨٦
- (٢١): «... خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ...» .. ٨٨
- (٢٢) «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ...» ٩٤
- الخاتمة ٩٩
- فهرس الموضوعات ١٠١

